الباب الخامس

﴿الامتحان﴾

"لا يكن أحدك إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم".

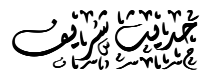

obeikandl.com

بلغ الشيخ بالقرآن والسنة قصارى ما يبلغه الرجال من الورع وتأدى بهما إلى عالم الفقه العظيم: وكان قد تخطى نصف قرن من العمر بسنوات. تسير الركبان بذكره. ولم يبق في مجده الفكري زيادة لمستزيد. لكن ما تلقيه السماء على كواهل الأئمة من أعباء ليست له حدود – والإمام في ذروته معلم ظاهر تطلع إليه الأبصار وتنزل عليه الصواعق.

ومع ان أحمد لم يكن يخوف فيما يفيض فيه المعتزلة وينزه حلقته عن الكلام في "خلق القرآن" فهو لم يقدر على أن يتفادى قدره، فدفع نفسه إلى صميم المعركة فخاضها، وقدم الدليل من روحه وجسده على صحة آرائه، واقتدارها على الصمود، غير قانع بالبقاء في مقاعد الجدال الوثيرة، أو قائل بالتقية أو لائذ بالتورية أو بالمعاريض.

ولما قعد المأمون في انتظاره والسيف في يده، وثنى المعتصم بالعقابين ينصبان له، وبالجلادين ينهشون جسده ويسلبون دمه، والمعتزلة شهود تجري وقائع التعذيب على أعينهم، ليقول الشيخ بمقولاتهم، وهولا يقول إلا بما في كتاب الله، بخعوا أنفسهم. وزادوا الإمام علوًا في ضمائر الناس لسبب جديد: هو الدفاع عن السنة والفكر الإنساني والتضحية في سبيلهما. فأضافوا مؤهلاً جديدًا لاعتباره أشهر الأئمة بالإمامة في السنة.

"وخلق القرآن" "وموقف أحمد" هما الفصلان التاليان. نتكلم فيهما، في وجازة بالغة، لتحديد معالم الصورة، دون استطراد تجريدي يخرجنا عن الإطار الذي بين يدينا.

obeikandl.com

الفصل الأول

موضوع الامتحان

"لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض

فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم

عبد الله بن عباس

- الخليفة الفيلسوف
- تيارات غريبة
- وضع المسألة
- المعتزلة وخلق القرآن
- أهل السنة
- اتخاذ موقف
- عدم القبول

obeikandl.com

أعد الرشيد أبناءه ليقيموا الدولة على دعائم الدين والعلم، وأرفى في إعدادهم على الغاية حتى فاق بهم نفسه، ولما آلت إليهم الخلافة استطرد كل واحد منهم في واحدة أو أكثر من مزايا أبيه أو عيوبه – انحاز الأمين إلى العرب انحياز أبيه في أخريات أيامه، لكنه ساق نفسه بلهوه وطمعه إلى مصرعه "وبسق المأمون في العلم حتى فاق السابقين واللاحقين، ولكنه ألقى بنفسه في أحضان الفرس والشعوبيين. وسمق المعتصم في الشجاعة وقيادة الجيوش وقوة البدن، لكنه أضاف إلى سيطرة الفرس، أخوال المأمون، التمكين للترك أخوال المعتصم!

وفي عهد الإخوة الثلاثة انفض فدام الوعاء البديع الذي كان يمسكه أبوهم بين راحتيه في براعة، ويصونه بتوازن حكيم بين أسباب العلم وأساليب القوة، وبين التدين والرفاهية، وبين العرب والموالي، وبين المسلمين وأهل الذمة، وكأنما جمع في يده من كل أطراف الخلاف أسبابًا للائتلاف، في أوسع رقعة عرفتها دولة إسلامية قوامها الوحدة من خلال التعدد والتواصل المخلص بين العناصر.

ولم يكن غريبًا في عالم يختل فيه التوازن في أخريات القرن الزاهر الذي مضى، وبدايات قرون التدهور التي تحث الخطى، أن يصاب المأمون من مأمنه، حيث هو الفرد العلم في التسامح الفكري – أو يصاب المعتصم من عوامل نصره، حيث البسالة بين جنده والطاعة لخليفته وقائده. فلقد كان الدهر في إدباره. ومن الإدبار انقلب تسامح الخليفة الفيلسوف إلى تعصب عنيد تتحكم فيه كل العقد التي فصلت بين المأمون وبين المحدثين، وأمست جسارة المعتصم (بطل عمورية) والتزامه بالوفاء لأخيه، شراسة بلهاء وطاعة عمياء.

الخليفة الفيلسوف:

كان طبع المأمون مزاجًا من الحلم والغضب، وإن كان الحلم فيه أغلب.. يضربه اليزيدي مؤدبه. ثم يتقدم جعفر بن يحيى بن برمك – الوزير – فيوجس الزبيدي خيفة ويخرج. فإذا انصرف عاد اليزيدي وهو يقول: خفت أن تشكوني. فيقول التلميذ: يا أبا محمد ما كنت أطلع الرشيد على هذه فكيف بجعفر؟ إني أحتاج إلى أدب!

ونقله الرشيد في التعليم بين القمم العلمية التي أتيحت لعصره: من اليزيدي في الأدب، إلى الحسن بن زياد صاحب أبي حنيفة في الفقه، إلى هشيم بن بشير وإسماعيل بن علية وأبي معاوية أشياخ أحمد في الحديث، إلى مالك بن أنس نفسه، رحل إليه الرشيد بالمأمون والأمين ليسمعا الموطأ.

حدثه عبد الله بن إدريس بمائة حديث فسأله المأمون: أتأذن لي يا عم أن أعيدها من حفظي؟ فأذن. فأعادها من حفظه فعجب!

وذات يوم غلب الدين على الواقدي فكتب بذلك إلى المأمون فوقع على الرقعة: فيك خلتان – السخاء والحياء. وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم.. فإن أجبنا إرادتك في بسط يدك فإن خزائن الله مفتوحة، وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد عن محمد بن اسحق عن الزهري أن رسول الله ﷺ قال للزبير: "يا زبير إن باب الرزق مفتوح بباب العرش – ينزل الله على العباد أرزاقهم بقدر نفقاتهم فمن قلل قلل له ومن كثر كثر له". "قال الواقدي: وكنت قد نسيت هذا الحديث. فكانت تذكرته أحب إلي من جائزته.

والمأمون يقول: ما قدمت بغداد إلا لأكتب كتب الواقدي، إعظامًا منه للحديث والسيرة.

برع في الفقه على مذهب أبي حنيفة وسنرى بعض فقهه بعد... وله تآليف مأثورة منها كتاب (جواب ملك البرغر فيما سأل عنه من أمور الإسلام والتوحيد) ورسالة (حجج مناقب الخلفاء بعد النبي ﷺ) ورسالة (في أعلام النبوة).

ومن الفتاوي المشهورة عنه أن امرأة جاءته تشكو أنهم لم يعطوها إلا دينارًا من تركة أخ خلف ستمائة دينار! فتدبر مليًا ثم قال: هذا نصيبك. قال العلماء الحضور كيف؟ قال خلف أخوك بنتين؟ قالت نعم – قال فلهما الثلثان (أربعمائة). وله والده ولها السدس (مائة). وخلف زوجة ولها الثمن (خمسة وسبعون). ثم التفت إليها وقال: وبالله ألك اثنا عشر أخًا؟ قالت نعم قال: أصابهم ديناران ولك دينار.

وكان يخطب خطبة الجمعة. وابن النديم يضعه بين خطباء التاريخ المعدودين بادئًا بعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله، وواضعًا فيهم أبا جعفر المنصور.

* * *

وكان حريصًا على حرية التفكير وحسن التعبير. لا يمنعه التزام نحلة أن يكون له رأيه. يتشيع لعلي لكنه لا يقدح في أبي بكر وعمر، ولا يمس عظيمًا من السابقين بسوء.

ولما دخل بغداد قال ليحيى بن أكثم اجمع لي العلماء فجمعهم وأفاض في فنون الحديث والعلم فلما أنفض المجلس قال له: "يا أبا محمد كره هذا المجلس الذي جعلنا للنظر طوائف من الناس، فطائفة عابوا علينا ما نقول من تفضيل علي رضي الله عنه وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي إلا بانتقاص غيره من السلف، والله ما استحل أن أنتقص الحجاج. فكيف السلف الطيب؟ وإن الرجل ليأتيني بالقطعة من العود أو بالخشبة أو الشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهمًا أو نحوه فيقول: إن هذا كان للنبي ﷺ أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه، وما هو عندي بثقة، ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسه... فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه من دونه" (١٢٤).

---

(١٢٤) ولم يسمع في أولاد الخلفاء من تعشق العلوم الفلسفية مثله – قرأ المترجمات ودرس الرياضيات والفلسفة والفلك – وكان له مرصد ملحق بقصره. وكان معوانًا على النقل من كل مصادر العلم في الفرس والروم والهند. وكان نقل الكتب من اللغات الأجنبية "مسألة دولة" عنده تدخل في مفاوضات الحرب والسلام. وهو صاحب بيت الحكمة لذي كان خزانة كتب في عهد الرشيد فصيرة هو مجمعًا علميًا (أكاديمية). وفي عهده أوشك العلم القديم كله أن يتم رحلته من اليونان والهند وفارس إلى بلاد الإسلام. وظهر الخوارزمي عالم الرياضيات الأول في العصور الوسطى والكندي فيلسوف العرب.

ولم يكن في الأدب أقل نفاذًا؛ أنشده عمارة بن عقيل قصيدة فيها مائة بيت فكان يبدأ بصدر البيت فيبادره المأمون إلى قافيته! فقال عمارة: "والله ما سمعها مني أحد قط". قال الخليفة: أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس قصيدته.

تشط غدا دار جيارنا. فقال ابن عباس: وللدار بعد غد أبعد.

حتى أنشد القصيدة يقفيها ابن عباس؟ أنا ابن ذاك.

وهو يتذوق النكتة ويستحب البراعة.. أغرق والي البصرة شاعرًا بأن يقصده حيث كان يحارب الروم وفي الطريق لقى الشاعر فارسًا على بغل قاره فسلم عليه وسأله من يقصد؟ قال: هذا الملك الذي ما سمعت بمثله

ومن اقتداره وسماحته يناقش المرتد فيعيده إلى الإسلام بالحجة، ويدعو رئيس المانوية من الري فيناظره، فيدعوه للإسلام، فيصر على دينه، فلا يكرهه على الإسلام، بل يضيفه ويحميه من الغوغاء ويبلغه مأمنه.

يقول يحيى بن أكثم: إذا حضر الفقهاء من أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم أنزعوا خفاقكم. ثم أحضرت الموائد وقيل لهم أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء، من خفه ضيق فلينزعه، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها، فإذا فرغوا أتوا بالمباخر فتبخروا وطيبوا

أندى راحة. قال الفارس فما الذي قصدته؟ قال شعر طيب يلذ على الأفواه. قال: فأنشدنيه – قال الشاعر: يا "ركيك" أما أخبرتك أني أقصد الخليفة؟

قال الفارس: وما الذي تأمل فيه؟

فأجاب: إن كان على ما ذكر لي عنه فألف دينار.

قال: أنا أعطيك ألف دينار إن وجدت الشعر جيدًا.

فأنشده أرجوزة..

ولم يكد يتم إنشاده حتى رأى زهاء عشرة آلاف فارس يقولون: السلام على أمير المؤمنين فارتاع الشاعر.

قال أمير المؤمنين: لا بأس عليك يا أخي.

قال الشاعر في سرعة خاطر: يا أمير المؤمنين جعلت فداك. أتعرف لغات العرب؟

قال الخليفة: أي لعمر الله، قال: فمن جعل الكاف منهم مقام القاف؟ قال: حمير – قال الشاعر: لعنها الله ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم.

فضحك المأمون وفهم ما أراد (رقيق بدلاً من ركيك) والتفت إلى الخادم وقال: أعطه ما معك فكان ثلاثة آلاف دينار.

وهو كريم الصحبة حلو النادرة مليح اللفظ لا تخلو مائدته من أديب أو شاعر أو عالم.. يماشي يحيى ابن أكثم، والمأمون في الظل، حتى يبلغ حيث أراد، فإنما رجعا قال ليحيى: كانت الشمس عليك لأنك كنت على يساري وقد نالت منك. فكن الآن حيث كنت. ما بد من أن تأخذ الشمس مني مثلما أخذت منك. فتحول يحيى وأخذ من الظل مثلما أخذ المأمون.

وناما يومًا فعطش فلم يدع غلامًا حتى لا ينتبه يحيى. وقام وشرب وجمع كمه في فمه حتى لا يسمعه يحيى إذ غلبه السعال. وتناوم يحيى إلى أن كادت صلاة الفجر تفوت – فدعا المأمون غلامًا ينبهه.. قال يحيى: يا أمير المؤمنين رأيت بعيني جميع ما كان الليلة من صنيعك..

obeikandl.com

ثم خرجوا فاسندناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين.

وهو القائل: "غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القوة – لأن غلبة القوة تزول بزوالها وغلبة الحجة لا يزيلها شيء".

ويروي بشر المريسي أنه حضر مجلسًا فيه المأمون وثمامة ومحمد بن أبي العباس وعلي بن الهيثم فتناظروا في التشيع فنصر محمد "الإمامية" ونصر على "الزيدية" (فرقتان في الشيعة) فقال محمد لعلي: "يا نبطي ما أنت والكلام"! وكان المأمون متكئًا فجلس وقال: "الشتم عي والبذاءة لوم.. فاجعلا بينكما أصولاً فإن الكلام فروع – فإذا افترعتم شيئًا رجعتم إلى الأصول".

وأدخل عليه رجل يأمر بالمعروف فأغلظ المقال له. قال المأمون: "يا هذا إن الله تعالى أمر من هو خير منك أن يلين لمن هو شر مني، قال لموسى وهارون: ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾

أما عفوه فمضرب المثل. يقول: "لا معنى لعقوبة بعد قدرة، الحلم عن الذنب أبلغ من الأخذ به" ويقول عن نفسه: "أنا والله ألذ العفو حتى أخلف ألا أوجر عليه".

وذات يوم وقف متهم بين يديه وهو ثائر الغضب.. قال المتهم: تأن يا أمير المؤمنين، فإن الرفق نصف العفو، قال الخليفة: كيف وقد حلفت لأقتلنك، قال المتهم: لأن تلقى الله حانثًا خير من أن تلقاه قاتلاً... فخلى سبيله.

وقدر على إبراهيم بن المهدي إذ ثار عليه ونصبه العباسيون خليفة.. فعفا عنه. وقدر على الفضل بن الربيع وكان من الثوار فعفا عنه.

* * *

لكن سورات غضبه كانت مصداق قول معاوية لرجل أغلظ القول له: "أنهاك عن السلطان، فإن غضبه غضب الصبي وأخذه أخذ الأسد".

سخر منه أستاذه في الفقه الحسن بن زياد اللؤلؤي إذ نام في أثناء درسه. قال: نمت أيها الأمير! فرشق الأمير الصغير الفقيه الكبير، بكلمة تملأ الفم: سوقي ورب الكعبة.

ولما صار خليفة كان غضبه على الفقهاء عجبًا. فلعل مرده إلى التحاسد بين القرناء، أو الكبرياء على الكبراء، أو إلى أزمة الثقة بينه وبين علماء السنة، أو إلى ضيق ذرعه بطول صبه عليهم، أو حذره منهم.

غناء علويه إذ هما في دمشق:

برئت من الإسلام إن كان ذا الذي أتاك به الواشون عني كما قالوا
ولكنهم لما رأوك سريعة إلى تواصوا بالنميمة واحتالوا

فقال وهو يكاد يتميز من الغيظ: لمن الشعر؟ قالوا للقاضي؟ فسأل أي قاض. ويحك! قيل قاضي دمشق. قال يا اسحق اعزله.. فليحضر الساعة. فأحضر. فسأله أتقول الشعر؟ فأجاب: كنت أقوله... وهذا الشعر من ثلاثين سنة. قال المأمون: أولى شئون المسلمين من يبدأ في غزله بالبراءة من الإسلام! وأتى بقدح فيه شراب فقال اسقوه: فأبى القاضي وقال ما ذقته قط. قال المأمون أحرام هو؟ قال نعم. قال المأمون نجوت فاخرج. ثم التفت إلى علوية يبقى عليه اللحن ويحتفظ بالوزن ويقول: بل قل:

حرمت مناي منك إن كان ذا الذي أتاك به الواشون عني كما قالوا

وكان بشر بن الوليد (٢٣٨) من قضاة عصره المعدودين ومن كبار رواة أبي يوسف، وكان واسع الفقه متعبدًا، لكن عقل المأمون التحليلي وشدة محاله عند الغضب لا تستثنيه. أمر بشر بضرب رجل سب أبا بكر وعمر وإطافته على جمل... فناقش المأمون القضية في مجلس العلماء.

قال فيما قال:

أقمت الحد على رجل.. أو حضرك خصومه؟.. أفوكلوك؟ وسأل: أمهما (أبي بكر وعمر) كافرتان أم مسلمتان؟ أفيقام في الكافرة حد المسلمة؟ فهبك فعلت ذلك – لما يجب لأبي بكر وعمر من الحق – أفشهد عندك شاهد عدل؟ وأقمت الحد في رمضان، أفتقام الحدود في رمضان؟ ثم جلدت وهو قائم. فالمحدود قيام؟ ثم شبحته (فوق بين يديه ورجليه) كالمصلوب بني العقابين، فالمحدود يشبح؟ ثم جلدته وهو عريان، فالمحدود يعرى؟ ثم حبسته بعد أن أقمت الحد– فالمحدود يحبس بعد الحد؟ ثم... ثم... واستمر يعد وجوه النقض.

ثم قال: لا يراني الله أبوء بإثمك.. خذو اعنه ثيابه. واحضروا المحدود ليأخذ حقه منه..

وتوسط العلماء فقالوا: الحمد لله الذي جعلك عالمًا بأحكامه، إن هذا حاكم أخذ برأيه فأخطأ، فلا تفضح به الحكام.. فأمر بحبسه في داره – دار بشر – وستظهر بعد على صنيع المأمون مع عمه إبراهيم ومع بشر بن الوليد ومع أحمد بن حنبل.

* * *

وقعت وقائع الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون حينما نقض الأمين – وهو خليفة – عهد الرشيد بالخلافة إليه ثم إلى المأمون ثم المؤتمن، فجعلها لبنيه من بعده، ووضعت الحرب أوزارها بهزيمة الحزب العربي وقتل الأمين بأيدي الجيوش الفارسية التي يقودها طاهر بن الحسين – وهو فارسي – وكان يدير الأمور للمأمون الفضل بن سهل، وكان فراسيًا مجوسيًا أسلم على أيدي البرامكة، وبويع للمأمون وهو بمرو في خراسان في ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨ فبقى بخراسان بين أنصاره، ثم أجمع أمره فقدم بغداد ليدخلها سنة ٢٠٤ على رماح الفرس. فجاءت الرماح بأصحابها إلى السلطة.

والمأمون هو الخليفة الذي جابهه القائل بقوله: انظر لعرب الشام كما تنظر لعجم خراسان! وحبس هرثمة بن أعين قائده العربي إذ واجهه بأن الفرس يتلعبون به، وقتل هرثمة في سجنه! وشن الحرب عليه نصر بن شبث لاتخاذه الفرس أنصارًا من دون العرب. وكان طوال إقامته بمرو خاضعًا لنفوذ الفضل بن سهل ذي الرياستين (السيف والقلم) أو الأمير الوزير! وقد جعله يولي العهد "عليًا الرضي" إمام الشيعة دون رضي على نفسه. كما زوج المأمون عليًا وابنه – محمدًا الجواد – من بنتين له.

والتشيع لبني علي منهج يلائم فهم الفرس للملكية الوراثية التي ألفوها في تاريخهم الطويل. وثار بنو العباس أنفسهم على المأمون لتوليته العهد واحدًا من فرع علي بن أبي طالب. وكذلك ثار المتشيعون.

وفصل المأمون من مرو إلى بغداد وذو الرياستين وولي العهد ألزم له من ظله، لتحل الأقدار السياسية في إبان الرحلة – أو تحل الجريمة – مشاكله! ففي سنة ٢٠٣ قتل الفضل ابن سهل في الحمام وأقر القتلة بالجريمة، وواجهوا المأمون قائلين أنت أمرتنا. فقال أنا أقتلكم بإقراركم، أما ما أدعيتموه علي فليس لكم عليه بينة! وولى مكان الفضل أخاه الحسن بن سهل، وتزوج بوران بنته زواج دولة، وهي طفلة، فلم يدخل بها إلا بعد سنوات.

وفي إبان الرحلة كذلك، حدث الحادث الأعجب! لقد مات ولي العهد! وحزن موته المأمون كما شهد شهود العيان!

تقول مصادر الشيعة إنه مات مسمومًا في أكلة عنب، والبعض يرجح أن العباسيين دسوا له السم من وراء المأمون لتخلص الخلافة لهم – أما الذين يفرضون أن الموت طبيعي فمنهم من يرون في عدول المأمون بعد موت علي عن تولية عهده إلى ابنه محمد الجواد، مع أنه صهره، دليلاً على أنه غير سياسته.. وفقًا لحدوث الموت الطبيعي. ويأخذون كذلك عليه أن تغيير رأيه قد حقق آمال الذين أقلقتهم ولاية العهد أو الذين دسوا السم.

ولقد هم إذ قدم بغداد بإعلان لعن معاوية على المنابر فثناه عن اللعن يحيى بن أكثم بقوله: "إن العامة لا تحتمل مثل هذا ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن تكون لهم نقرة وإن كانت لم تدر ما عاقبتها، والرأي عندي أن تدع الناس وما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وأخرى في التدبير".

وهم بإعلان القول بخلق القرآن ثم تريث فقال: "لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت القول بخلق القرآن"، فقال بعض جلسائه ومن يزيد بن هارون حتى يتقيه أمير المؤمنين؟ فقال: "أخاف إن أظهرته أن يرد علي فيختلف الناس فتكون فتنة".

وفي سنة ٢٠٩ شرع يعلن انحيازه للمتكلمين فقرب إلى مجالسه بشر المريسي (٢١٨). وكان بقباقا (ثرثارًا) كما يصفه البعض، وزنديقًا كما يصفه أبو زرعة الرازي تلميذ أحمد. وأحاط به المعتزلة إحاطة السوار بالمعصم. فثمامة من أهل شوراه، والنظام أعجوبة دهره، والجاحظ يجري في فلكه.

وانطلق الخليفة يعلن البدع فنودي في الناس: برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخبر ثم أعلن القول بخلق القرآن في مجالسه الخاصة، ثم أعلن في سنة ٢١٥ بدعتين جديدتين هما زواج المتعة وإلزام الجند بالتكبير إذا صلوا الجمعة وبعد الصلوات الخمس.

تيارات غريبة:

وكانت تيارات فكرية تجوب الآفاق من فاتحة القرن الثاني لمقاومة الإسلام ونقل الدولة من العرب إلى الفرس. فكتب لها نجاح جزئي أو مبدئي بنقل الدولة إلى بني العباس مع فرض النفوذ الفارسي عليها. وتلاقت هذه التيارات في منعطف خطر من التاريخ هو عصر المأمون. تقويها الحرية الفكرية التي تتيحها الدولة الإسلامية للمواطنين حيث الحرية المطلقة للعقيدة، وتمدها الترجمات المتدفقة بمواريث العصور السحيقة من خلافات أصحاب الديانات، ووثنية الإغريق، وزندقة الفرس. والدولة تتسع في أسيا وأوربة لتبلغ أوسع رقعة بلغتها، وكان طبيعيًا أن يتم الأخذ والعطاء بين الفاتحين وبين أهل البلاد المفتوحة وأن تنفتح أبواب للحاقدين والناقدين.

لقد وطد قتيبة بعد سعيد أركان الإسلام شرقًا في طشقند من أقاليم روسيا الحالية، ووطدها موسى بن نصير غربًا في شواطئ المحيط الأطلسي حينما دخل العرب أسبانيا سنة ٩٣، وطوى طارق في زحفه السريع سبعمائة ميل من جبل طارق إلى خليج بسكاي في المحيط الأطلسي فصير العرب الأندلس (أسبانيا) أعظم دول أوربة حضارة في القرون الثمانية التالية. وكانت جباية بعض ملوك العرب فيها ١٢.٤٥٠.٠٠٠ دينار تعدل جباية كل ملوك أوربة مجتمعين.

وشرق العرب من صخرة طارق ألف ميل فأخضعوا جنوب فرنسا حتى مصبي نهري الجارون والرون – ونشروا اللغة العربية ودينها. وكما يقول "جبون" في القرن الماضي: "كان بوسعهم لو مشوا ألف ميل أخرى أن يصلوا إلى مرتفعات سكوتلانده في شمال إنجلترا او حوض الراين في شمال ألمانيا" (١٢٥).

وكانت تعاليم الإسلام منذ عهد بني أمية تدرس من مسرقند شرقًا (في وسط روسيا السوفيتية الآن) حتى أشبيلية غربًا (أسبانيا الحالية).

---

(١٢٥) تراجع الخريطة المرفقة.

واندلحت رقعة الإسلام [١٢٦] في وسط كرة الأرض كأنما تمسكها من وسطها. وأتيح لأبي جعفر من النفوذ أن يعين إمبراطور الصين على أعدائه.

---

(١٢٦) في هذه الحقبة الزاهرة كانت علوم الفرس واليونان، والهند والسريان تسعى إلى المسلمين في ركاب المنتصر، يتعلمونها ثم يعلمونها للعالم، بين ما يعلمونه من فقه وأدب وتاريخ وفلسفة وتقويم بلدان وطب وهندسة وفلك ورياضيات عالية وكيمياء صيدلة. وعرف التاريخ في العلوم الطبيعية والرياضية أعظم الأسماء، ففي الطب يجيء اسم الرازي بعد أبقراط وجالينوس مباشرة ويستمر وحده حتى يشركه ابن سينا لينفرد كتابه في الطب بالطباعة حتى القرن السابع عشر للميلاد.

وأول اسم استحق في التاريخ لقب كيميائي – كما يقرر الأوربيون – جابر بن حيان. والخوارزمي أكبر مخترع في الرياضيات العالية الذي يسر لها بلوغ شأوها في القرون التالية باختراع علم الجبر فنقلت الأرقام العربية عنه إلى أوربة. وتوالت أسماء الكواكب اللامعة في الرياضيات العالية والفلك والطبيعة والفلسفة.

وكان الكندي فيلسوف العرب يؤدب ولد المعتصم ويصحح له كتاب بطليموس. وكان الخوارزمي قيمًا على خزانة الكتب للمأمون.

والتاريخ الذي يبايع أرسطو على أنه المعلم الأول يبايع الفارابي وابن سينا على أنهما المعلمان الثاني والثالث. وعندما يقال "الشارح" يعرف علماء أوربة أنه ابن رشد شارح أرسطو.

وسينهزم الصليبيون عن بلاد المسلمين بعد قرون لكنهم يرجعون إلى أوربة بعلوم المسلمين فيغزو الفكر الإسلامي غزاة بلاد المسلمين، وبهذا الغزو الفكري يبدأ عصر النهضة الأوربية.

أنشأت جنوة في سنة ١٢٠٧ جامعة لنقل كتب العرب وفي عامي ١٢٠٩، ١٢١٥ قرر المجمع المقدس وأيده البابا منع تدريس فلسفة ابن رشا وابن سينا. ومن ذلك ومن مقاومة الفكر الأوروبي للتدخل بدأ تحرير الفكر من قهر الكنيسة. وأنشأ الإمبراطور فردريك الثاني (سنة ١٢٢٤) جامعة نابولي لنقل العلوم العربية الإسلامية، فوق ما تنقله مدرسة سالرنو، كما أنشأ العرب المطرودون من أسبانيا مدرسة في مونبليه بجنوب فرنسا.

وكانت الترجمة على أشدها في أسبانيا حتى أنشئت مدارس بتمامها في الأديرة وخارجها لترجمة كتب جامعات قرطبة وطليطلة وغرناطة وأشبيلية وكان النقل أغزر وأكبر حجمًا وأطول عمرًا في أسبانيا إذ ل يتم جلاء العرب عنها إلا في سنة ١٦١٠ وبقيت كتبهم في أيدي الأوربيين. وهكذا نقلت جامعات أوربة الغربية في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأسبانيا علوم العرب وعلوم اليونان مترجمة من العربية إلى اللاتينية بعد إذ ترجمت من اليونانية إلى العربية في عهد الرشيد والمأمون ومن جاء بعدهما وكان يحجبها عن أوربة غضب الكنيسة على الدولة.

ولما غزا الأتراك القسطنطينية سنة ١٤٥٣ أخذت الكتب اليونانية تتسرب إلى أوربة من القسطنطينية فتساعد على إحياء جديد بعد الذي بدأ بترجمة كتب المسلمين من خمسة قرون.

على أن المرء يلاحظ أن هذه العلوم كلها ظهرت بعد أن كان الفقه قد بلغ أعلى شأوه. والسبب واضح مرده إلى أن الأمة الإسلامية أقامتها الشريعة ولذلك كانت أصولها في الفقه هي أصولها في العلم بكل فروع المعرفة وهي الاستقراء بجميع الجزئيات وضمها إلى بعضها والتأمل بالتحقيق الدقيق للحقائق والعلل ثم القياس ثم الاستخلاص. وقد انتقلت هذه الطريقة إلى أوربة عن كثيرين مثل روجير بيكون، وهو القائل "إن علوم العرب هي الطريقة الوحيدة للمعرفة" وفي آلاف الترجمات من جامعات الأندلس وصقلية مصر ودمشق وبغداد، لتصبح الطريقة العلمية الإسلامية فتحًا علميًا يقدمه لأوربة فرنسيس بيكون في القرن الخامس عشر فتحمل اسمه عند الأوربيين وما هي إلا الطريقة العربية المترجمة. ومنهج "التجربة والاستخلاص" هو منهج جابر بن حيان أعلنه جابر وطبقه في القرن الثاني للهجرة أي الثامن للميلاد.

وأحدثت العلوم الإسلامية والحضارة الإسلامية أثرها قويًا في أوربة. فإيطاليا كانت طليعة حركة الأحياء أو النهضة لاحتكاكها بالعرب في صقلية في جنوب إيطاليا. وكذلك كانت السيطرة للأسبانيا في أوروبة في القرن السابع عشر لتقدمها في الحضارة. وكانت الكتب العربية منتشرة في جامعات بادوا والبندقية وفرارا وبولونيا أما في الأندلس فكانت كلها علومًا عربية ابتداء من سقوط طليطلة في سنة ١٠٨٥م ويومئذ أنشئت مدارس للمترجمين عن العرب. أما الأثر في لحضارة فنجده عين الزائر في العمارة وفي الصناعات ببلدان شتى منها مباني بروج وجاند في بلجيكا في شمال أوروبا ومباني البندقية وموانى إيطاليا في جنوب أوربة وقلاع إنجلترا وفرنسا أو كنائسها في الغرب والشمال ووسط أوربة.

وتجلت الثقافة العربية في قرطبة فكان فيها سبعون دارًا للكتب.

ومنذ سنة ٩٧٠م (القرن الرابع الهجري) كانت في غرناطة وحدها ١٢٠ مدرسة، منها ١٧ مدرسة كبيرة، ٢٧ مدرسة مجانية. وكان يقصدها الملوك الأوربيون والسروات للعلم والعلاج ونقل أسباب الحضارة.

ومنذ سنة ١٦٤٠ حملت قصيدة Del Cid اسمًا عربيًا (السيد) في رواية Le Cid لكورني أعظم شعراء التاريخ الفرنسي وكثير من القصائد الأسبانية في العصور المشار إليها تدور حول مواضيع عربية فلا عجب أن يقرر (سرفانتس) أعظم كتاب أسبانيا أن قصة دون كيشوت منقولة عن العربية.

وتأثير العلوم العربية مسلم في أدباء أوربة مثل دانتي أكبر شعراء القرون الوسطى بإيطاليا. وكراهة بترارك لكل ما هو عربي دفاع شخصي ضد غزو العرب الفكري، وتأثر فولتير بالثقافة العربية معروف وكذلك جيته أكبر شعراء ألمانيا بل هو قرأ (ترجمة القرآن) وأعجب بالإسلام.

وفي القرن التاسع عشر للميلاد قال "هيجو" في مقدمة قصائده الشرقيات Les orientales (كان العالم في عصر لويس الرابع عشر مقبلاً على الدراسات الإغريقية أما الآن فقد أقبل على الدراسات الشرقية).

وأصبحت أسماء ابن سينا والخوارزمي وابن الهيثم والبيروتي وابن رشد وعشرات من أسماء العلماء العالميين أسماء المراجع في جامعات فرنسا وإنجلترا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا. وظلت الجداول الفلكية للخوارزمي معمولاً بها حتى القرن السادس عشر في عصر كوبرنيكس.

ولقد حاول العرب غزو أوربة من الشرق في عهد معاوية سنة ٤٩ فأخفقوا ورجع عن القسطنطينية جيش ابنه يزيد. وأعادوا الكرة (سنة ٩٨ – ٩٩هـ – ٧١٧ – ٧١٨م) حين حاصرها جيش مسلمة بن عبد الملك ورجع عنها بأمر عمر بن عبد العزيز يوم ولي الخلافة. وفي سنة ١٧٦هـ – ٧٧٦م وقف قبالتها خمسة وتسعون ألف دارع على رأسهم هارون الرشيد في خلافة أبيه المهدي فصالحته الإمبراطورة على جزية سنوية مقدارها سبعون ألف دينار.

لكن العرب في عصر المأمون اتجهوا وجهة أخرى هي فتح أوربة من وسطها ففتحوا جزيرة كريت سنة ٢١٢ وأنشأوا مدينة الخندق (كنديا) عاصمتها الحالية. وغزا أسد بن الفرات جزيرة صقلية في العام ذاته.

وفي عهد المعتصم والواثق والمتوكل تتابع التقدم في شبه الجزيرة الإيطالية ذاتها واستولى المسلمون على برنديزي وباري سنة ٨٤١م ومسينا وأعطوا أهل نابولي الأمان.

ودانت لهم بالرمو وكاسينو حيث الدير المشهور في تاريخ المسيحية – بين أديرة كثيرة وجامعات متخصصة بنقل علوم العرب – ليدور التاريخ دورة كاملة فترجم علوم الإسلام إلى أوروبة وفيها ما ترجمه المسلمون عن اليونان آباء أوربة إيذانًا بفتح جديد لأوربة، من عقلها وذاته، بمنهج التفكير الإسلامي وبالمعارف الإسلامية، وأساسها الحرية الفكرية.

يقول المستشرق البريطاني Gibb (إن الثورة الوطنية التي قام بها بترارك (١٣٧٤) ضد العرب إن أثبتت شيئًا فهي تثبت على الأقل أن الشعر العربي كان معروفًا في إيطاليا في ذلك الوقت والمقارنة بين عصر بترارك وعصر دانت (١٣٢١) تدل على أن دانت كان يعرف ويعلم ويقرأ الكتب العربية).

وفي سنة ١٢٩٦ برر المجمع اللاهوتي في باريس تحريم دراسة الفلسفة العربية بقوله (إن المجلس يحرم كل من يعتقد أن العقل الإنساني واحد في كل الناس) بل استصدر رجال الكنيسة من الباب إسكندر الرابع قرارًا بتحريم الفلسفة العربية.

ولما أعلن كوبرنكيس في القرن السادس عشر أن الشمس مركز الكون لا الأرض، حاربته الكنيسة نحو قرن وكانت النظرية القرآنية تملأ الكون وهي أن الشمس مركز الكون والنظرية العربية أن الأرض كرة شبهها الشريف الأدريسي للإمبراطور وهو يعلمه بكرة من فضه. وهاتان نظريتان لم تبلغهما الحضارة الغربية إلا بعد قرون.

وهكذا تفرد الفكر الإسلامي عشرة قرون في تاريخ العالم. تنهض به دول قوية سياسيًا وعسكريًا ومجتمعات قوية بعقائدها ومقوماتها في الشرق والغرب. ليستمر تيار الحضارة العالمي في جريانه.

وفي سنة ٢٣٣ هـ – ٨٤٦ م استولوا على كنيستي سان بيتر وبولس المعروفتين بروما عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية آيامذاك. وبقى للعرب في إيطاليا مستعمرات في كامبينا وابـرورذي مـن سـنة ٨٢٧ إلـى ٨٧٨. ولمـا اسـتوطنوا مدينـة بـاري الحاليـة تحكمـوا فـي بحـر الإدرياتيك كما تحكموا في البحر المتوسط. وهكذا أتيح للحضارة الإسلامية أن تنشر أعلامها من باكستان وتركستان وأفغانستان وإيران وأرمينية وجزيرة العرب في أسيا إلى دول البحر الأبيض وبـلاد المغرب العربـي وجنـوب فرنسـا وأسـبانيا علـى المحيط الأطلسـي لتظهـر فـي دول الشـمال التابعة لأسبانيا وهي بلجيكا وهولندا. واحتوى العرب أوربة بين ذراعين طويلين أولهما في الأندلس والبرتغال الآن. وثانيهما في بحري نزوين وآرال، حيث النهران سرداريا وأمودايا في كزاخستان في روسيا الحالية.

* * *

لم يكن لأعداء الإسلام قبل بالقوة الحربية أو الفكرية للمسلمين، ولا كانت لديهم أفكار قادرة على مقاومة أفكارهم. والخلافات في القضايا العالمية من قضايا الحضارة حروب شاملة. مـن أسـلحتها الوقـائع العسـكرية والمواجهـات الفكريـة، وإثـارة الشـكوك والشـائعات وإفسـاد العقائـد بالريب والأكاذيب، يصطنعها الدعاة ليبلغوا في أوقات اليأس والقنوط، و بالإفراط أو التفريط، ما لا تبلغه الجيوش المظفرة أو العقائد الصحيحة.

* * *

بدأ المنافقون والمشركون في عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين حرب الأراجيف خفية أو جهرة. ثم اندسوا بين الفرس من أشباع عليّ كرم الله وجهه. فلما استمرءوا التسامح من الدين والتهاون من الولاة فدح خطرهم في عهد المهدي، وانغضت الزندقة رأسها بطرائق شتى أتيحت لها في عصر المأمون حرية الحركة، تحت الظلال الثقيلة التي ألفتها النزعة الفارسية على الأمة والدولة.. والزندقة وكراهة العجم للعرب توأمان. تعمل كل منهما في خدمة الأخرى.

وأحمد بن حنبل يفت الأنظار إلى هذا الخطر حيث يقول: "ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها، ونحبهم لحديث النبي ﷺ، فإن حبهم إيمان وبغضهم نفاق، ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب ولا يقرون لهم بفضل..".

وفي هذا المعنى يقول سياسي وعالم هو الصاحب بن عباد: "لا أرى أحدًا يفضل العجم على العرب إلا وفيه عرق من المجوسية".

ففي عهد أبي جعفر خرج شنباد ثم الراوندية ثم أستاذ يس حاكم طبرستان. ثم قام "المقنعية" فاتخذوا مرو قاعدة لهم ومنها انتشرت تعاليمهم إلى بخاري وسمرقند تنادي بإسقاط فروض الإسلام وإباحة النساء والأموال والسجود للمقنع. وظفر المهدي بالمقنع سنة ١٦٣... وتسربت أفكار الزندقة إلى الشعراء والأدباء، ونشط المهدي لمقاومتها حتى ليبعث سنة ١٦٦ بنفسه بشار بن برد إلى "حمدون" صاحب الزنادقة ليضربه ضرب التلف، ويقتل ابن وزيره معاوية بن يسار لزندقته. وفي سنة ١٦٨ قتل عدد كبير من الزنادقة في بغداد. ولما قدم عبد الكريم بن أبي العوجاء إلى القتل لزندقته اعترف بأنه وضع أربعة آلاف حديث مكذوبة على النبي ﷺ يحلل فيها ويحرم.

وأوجس المهدي شرًا من هذا الخطر، فبصر ابنه الهادي به قال: "يا بني إن كان لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة"، يعني الزنادقة (أصحاب ماني) ويقول الهادي في أواخر أيامه: "والله إن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها" لكن الهادي مات في بداية أمره وآل الحكم إلى الرشيد، فآل الحكم في الواقع بتفويض شامل إلى أستاذه يحيى ابن خالد بن برمك، وهو الفارسي المعرق، وجدوده سدنة بيت النار ببلخ، وفيه وقى آله يقول الأصمعي:

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك[١٢٧]

---

(١٢٧) يمثل مزدك الزندقة الفارسية في جملتها ولد سنة ٤٨٧ وأعدم سنة ٥٢٣ وجمع عقائد الفرس من المانوية أتباع ماني الذي أعدم سنة ٢٧٢ – والمانوية تقول بوجود إله للظلمة وإله للنور وتثبت التعارض بين الأناجيل – والزردانشية – أتباع زرادشت (٥٨٣ ق. م) تقول المقولات ذاتها عن إله الظلمة وإله النور.

والمزدكية تأخذ بالمانوية وتضيف جديدًا هو اشتراك الناس في الأموال والنساء.. ومن ثم لقيت إقبالاً وهذه الزندقات كلها تروج لفكرة الاتصال بما وراء الطبيعة وكشف السر الإلهي.

ولما دخل الإسلام وسط أسيا كانت المزدكية والزرادشتية والمانوية سائدة في أمم كثيرة وأصبحت التثنية والاتصال بالعالم الخفي عنوانًا على فكرة الغنوص. "والغنوص" كلمة يونانية معناه المعرفة صارت بالاستعمال اصطلاحًا على الفكرة القائلة بالتوصل بنوع من الكشف القلبي إلى المعارف العليا دون استدلال أو برهنة عقلية.

والبيروني يذكر أن عبد الكريم من أ[ي العوجاء كان من المانوية. ويذكر البعض منهم بشار ابن برد وسلم الخاسر بل وممد بن عبد الملك الزيات والبرامكة الوزراء.

وصارت عاصمة الخلافة كصندوق الدنيا الذي يحتوى الغرائب فهي لم تكن كدمشق عاصمة بني أمية، في شمال الجزيرة تدير ظهرها للعالم الإسلامي، بل كانت تنشر جناحيها على عالم أنشئت في القلب منه فكانت تنبض بعجائبه.

وكان بالكوفة – في عصر واحد – الحمادون الثلاثة متهمين بالزندقة: حماد عجرد – حماد بن يونس – وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان. أما البصرة فصورة مصغرة من مجتمع العاصمة، فيها عشرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم: الخليل بن أحمد صاحب العروض وهو سني، والسيد الحميري الشاعر وهو شيعي رافضي... وصالح ابن عبد القدوس وهو وثني – وقد أعدم بتهمة الزندقة – وسفيان بن مجاشع وهو من الخوارج الصفرية وابن رأس الجالوت الشاعر وهو يهودي، وابن نظير المتكلم وهو نصراني، وحماد عجرد [١٢٨] زنديق. وعمر بن أخت أخت المؤيد وهو مجوسي، وابن سنان الحراني الشاعر وهو صائبي، وبشار بن برد وهو خليع ماجن وشاعر أعمى، كانوا يتناشدون أشعارًا وأخبارًا فكان بشار بن برد يقول: "أبياتك يا فلان أحسن من سور كذا وكذا".

* * *

وفي ظلال التسامح انتشر الاستهتار والمجانة والاستخفاف. فغدا الماجنون يتزندقون خلاعة أو يتعاجمون ظرافة! وهي آفة سجلها عليهم شعراء عصرهم. قال شاعرهم:

وترجم ابن المقفع كتاب مزدك المعروف (بدستاو) وسرعان ما تكونت فوق ما تكونت فرق مزدكية كثيرة في بلاد ا لإسلام وقد نبه البيروني إلى آثره في كتاب كليلة ودمنة وما أضافه إلى ترجمته وتنبه الخليفة المهدي إلى خطر ابن المقفع فقال: "ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع".

ولما مات مزدك أنشأت زوجته خرما الفرقة الخرمية فطفقت تعمل في فارس قبل الإسلام وبعده وبمادئها تحول عمار بن بديل أحد الدعاة لبني العباس سنة ١١٨ إلى المزدكية نرخص للناس في نساء بعضهم فقتله أسد بن عبد ا لله القسري وإلى الأمويين وتتابعت الخرمية أو الخرمدينية. فظهرت في الأبي مسلمية (أتباع أبي مسلم الخراساني) تنادي بألوهية أبي مسلم في حياته ثم بنته فاطمة ثم ابنها فيروز. وظهرت في بنباذ إذ قام يطالب بثأر أبي مسلم فقتل سنة ١٣٨.

(١٢٨) يقول أبو نواس كانت أتوهم أن حماد عجرد إنما رمى بالزندقة لمجونه حتى حبست في حبس الزنادقة فإذا عجرد إمام من أئمتهم وله شعر مزاوج يقرءون به في صلاتهم.

مزنـــدق الظـــاهر بـــاللفظ فـــي بـــاطن إســـلام فتـــى عـــف
لســـت بزنـــديق ولكنمـــا أردت أن توســـم بـــالظرف

وكانت أشعار أبي نواس تتفق في مجالس الأمين – العربي الهاشمي أبًا وأمًا – ومع ذلك يقول أبو نواس:

ومـــن تمـــيم ومـــن قـــيس ولفهمـــا لـــيس لأعاريـــب عنـــد الله مـــن أحـــد

وهو القائل:

تـــراث أنوشـــروان كســـرى ولـــم يكـــن مواريـــث مـــا أبقـــت تمـــيم ولا بكـــر

وهو الذي يجمع آفات عصره، لنفسه، مباهيًا في بيت واحد:

فاســـقنيها وغـــن صـــوتًا لـــك الخيـــر، أعجمـــا

هكذا رفرفت أجنحة الخمر والغناء، والعجم والتعاجم، والزندقة والتزندق، على مجتمع فيه أشتات من العرب والفرس والترك والسودان والكرد والسريان والهنود. ومن السمر والصفر والبيض والسود. ومن المسلمين والنصارى والمجوس.

obeikandl.com

وكانت الوحدة الإسلامية مطلوبة من خلال التعدد في الأقاليم، والانسجام مأمولاً من خلال التنوع في الأجناس، بالالتقاء على مزايا العقيدة وسجايا الإسلام التي كتبت له بها الانتصار. لكن قصر الخليفة ذاته صار مباءة لانفصام، الشخصيات، وتعدد الحكام وتنوع المشارب، مع الترخيص في الحياة الخاصة. ففي عهد الرشيد حكم البرامكة. وفي عهد الأمين حكم المجنون، وفي عهد المأمون تنقل الأمر من يد بني سهل، إلى طاهر بن الحسين وبنيه، إلى آخرين أمثالهم. ثم فتح الخليفة على نفسه ثغرات في أكثر الجبهات، ومكن للشعوبيين بانفتاحه الفكري غير المحدود، وغضبه على المحدثين وميله عن العرب. وقد كانت منهم جيوش الأمين.

كان بيت الحكمة مفخرته العلمية ومع ذلك ولى عليه سهل بن هارون وهو فارسي شعوبي يكره العرب ويؤلف التآليف ضدهم، ولما آل الأمر إلى المعتصم قدم الملك لقمة سائغة للترك. فازدردوه من أيدي بنيه. وفي هذا العصر قال بشر بن الحارث: "بغداد ضيقة على المتقين لا ينبغي لمؤمن أن يقيم بها".

ولم تعد الزندقة تنغض رءوسها فسحب. بل شهرت رماحها. فظهر بابك الخرمي ليدعي الألوهية، فجمع أطراف الزندقة التي تناثرت في مذاهب الفرس السابقة من المانوية والمزدكية والزرادشتية والمسلمية (نسبة إلى أبي مسلم الخراساني) إلى الراوندية إلى المقنعية وهي كلها تسهدف عودة الأمر للفرس.

وصار لبابك في مستهل حكم المأمون جيش كثيف خيالته – وحدها – عشرون ألفًا، ولم يقدر عليه المأمون طوال حكمه، فأوصى به المعتصم بعده، فلم ينتصر عليه المعتصم إلا بعد سنتين من الحرب بجيش يقوده فارسي آخر هو الأفشين [١٢٩].. وأسر بابك وقتل في سرمن رأي. ثم ظهر أن الأفشين نفسه زنديق ضبطت في بيته الأصنام وكتب الدين الفارسية وثبت عليه الاتصال بالزنادقة فحبس، ودس له السم أو منع عنه الطعام، فمات سنة ٢٢٦.

وكهيئة الأفشين كان المازيار من كبار ولاة المأمون على طبرستان ثم أظهر الانتقاض وعرفت المراسلات بينه وبين بابك الخرمي وظهر أنه كان رئيسًا سريًا لجماعة بابك!

---

(١٢٩) اسم الملوك في أشر وسنة.

وضع المسألة:

في هذا البحر الزاخر بالمخاطر علا مد المعتزلة. وكانت ترجمات المعارف اليونانية والفارسية والهندسية والنبطية تملأ أسواق العلم والأدب. كما كان الجدل بين، المسلمين وأصحاب الديانات من الذميين بضاعة مزجاة في كل مكان، تتسرب منها المعارف المناقضة للتعاليم الإسلامية، والمسلمون يدفعونها بالتي هي أحسن، حتى اعتنق المأمون آراء المعتزلة في القضاء والقدر والقدح في بعض الصحابة، ونفى الصفات وما إلى ذلك من آرائهم، وراح يفرضها بالقوة الحكومية كما صنع أباطرة الرومان في القسطنطينية وكما سيصنع بابوات روما وبراطرتها من بعد.

وحلقة أحمد في أوج ازدهارها ببغداد. تتداول الذكر الكريم بقلوب وجلة، الحديث النبوي بنفوس وروعة، وتتمسك بالسنة وترفض كل بدعة، وتتدارس قول أبي نجيح العرباض بن سارية "وعظنا رسول ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول كأنها موعظة مودع؟ فأوصنا. قال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة خلفائي الراشدين، المهدبين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة..." وقول أبي بكر: "أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن ما لم أعلم"، وقول ربيعة بن عبد الرحمن (١٣٦) شيخ مالك بن أنس إذ يسأل كيف استوى سبحانه على العرش، في معنى قوله جل ثناؤه: (الرحمن على العرش استوى) فيجيب: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق".

وقول مالك (١٧٩): "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال بدعة" وقول سفيان الثوري والليث بن سعد عن الأخبار التي جاءت في صفات الله تعالى: "أمروها بلا كيف" وهو تعالى: "ليس كمثله شيء" وهو تعالى كما وصف نفسه، وليس كهيئة الناس، سبحانه وتعالى عما يصفون، والقرآن كلامه، ليس ككلام الناس، والقرآن فوق الجدل.

قدم بغداد سنة ٢١٢ يعقوب بن... بن.... عبد الرحمن بن عوف من المدينة تعرض له رجلان يسألان عن مشغلة بغداد ليعرفا رأي أهل المدينة. قالا: اختلفنا في قول فأردنا أن نعرف قول أهل بلدك عن "خلق القرآن" فأجابهم: "قول أهل بلدي أنهم لو أخذوكما لأوسعوكما ضربًا" فعمل أهل المدينة وعلمها لا يسبغ الكلام في المسألة.

ويروي الكرابيسي أن أم بشر المريسي طلبت إلى الشافعي أن ينهاه عما هو فيه – وكان صاحب فرقة من المتكلمين – قال الكرابيسي: فشهدت الشافعي وقد دخل عليه بشر فقال له: "أخبرني عما تدعو إليه أهو كتاب ناطق أم فرض مفترض أم سنة قائمة. أم وجوب عن السلف الكلام فيه والسؤال عنه" فأجاب بشر: "ليس فيه كتاب ناطق ولا فرض مفترض ولا سنة قائمة ولا وجوب من السلف البحث فيه. إلا أننا لا يسعنا خلافه". قال الشافعي أقررت على نفسك بالخطأ فأين أنت من الفقه والأخبار وتترك هذا؟ قال بشر: لنا نهمة فيه. فلما خرج قال الشافعي: لا يفلح.

وكتب بشر إلى منصور بن عمار (٢٢٥) يطلب رأيه في خلق القرآن فأجابه: "نحن نرى الكلام في القرآن يدعه اشترك فيها السائل والمجيب فتعاطي السائل ما ليس له. وتكلف المحبيب ما ليس عليه" وفي معنى: (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى! قال: "استواؤه غير محدود والجواب فيه تكلف ومسألتك عن ذلك بدعة والإيمان بجملة ذلك واجب" قال تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله) ثم قال: (والراسخون في العلم يقولون آمنا به. كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) فمدح اعترافهم بالعجز عن تأول ما لم يحيطوا به علمًا. وسمى تركهم التعمق فيما لم يكفلهم به رسوخًا في العلم. فانته – رحمك الله – من العلم إلى حيث انتهى بك...".

وأحمد على غرار شيخه الشافعي ومالك والسلف الصالح. يقاوم بدعة الكلام في صفات الله ويؤمن بالصفات. كما وردت في القرآن، وينبه الناس على عدم التشبيه والتجسيد الذي يسقط فيه البعض. ومن أربع معانيه وأعلاها في البيان أن يسأله سائل: كم بينا وبين عشر الله سبحانه وتعالى؟ فيجب: "دعوة مسلم يجيب الله دعوته" فهو يرد على رجل يطلب حساب المسافات، بأن ما بين الله والمسلمين هو دينه، والإيمان به، ودعاء المسلم واستجابته سبحانه وتعالى له. وهو القريب بسلطانه البعيد بعلو شأنه. لا يتخيل بذاته ولكن بعظمة صفاته. لا تشبيه ولا تجسيد ولا جسمية ولا مكانية.

* * *

أما الحشويون [١٣٠] فيجوزون التشبيه والتجسيد على ذات الله من الانتقال والاستقرار والصعود والنزول وما إليها من الجسيمات والمكانيات التي يألفها الناس. ويجرون الأحاديث المتعارفة في ذلك على ما يتعارفه الناس في صفات الأجسام ونزول أقدامهم حيث زل اليهود، وتضل أفهامهم من حيث أضلهم وضاع الأحاديث الملأى بالإسرائيليات. كمثل أن يقول القراءون اليهود إن عين الله اشتكت فعادته الملائكة وإنه بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه – فينسب الوضاعون إلى الرسول أنه يقول: "لقيت ربي وصافحني وكافحني ووضع يده في يدي حتى وجدت برد أنامله"!

وعلى هذا النحو البعيد من الإسلام يفهمون قوله عليه السلام: "قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن" فيرون قلب إنسان وأصابع إنسان. ولا يرون ذلك في أضواء البيان العربي.

وأحمد يفسر الحديث تفسير اللغة العربية الصحيحة فلا ينسب للرحمن أصابع كأصابع الناس.

والتشبيه مصدر مزدكى أيضًا فالمزدكية من تعاليمها أن الله يجلس على كرسيه في العالم الأعلى كهيئة جلوس الملك خسرو في العالم الأسفل.

والحق – كذلك – أن كثيرًا من الشروح الإنجيلية تأثرت بالفلسفة اليونانية الوثنية عند "أصحاب المظال" كما ترجم العرب اسم في ذلك الحين stoics الرواقيين.

ووجد كثير من النقول عن شراح الأناجيل كشروح في تفسير الطبري (٣١٠) لسورة مريم نقلاً عن وهب بن منبه وابن جريج وآخرين. ومن قبل الطبري كان مقاتل بن سليمان من أوائل المفسرين (١٥٠) كثير التشبيه. وقد اختلف مع جهم ابن صفوان لنفى جهم للصفات وإكثاره التأويل. وفي الرجلين يقول أبو حنيفة: "أفرط جهنم في نفي التشبيه حتى قال إنه تعالى ليس (بشئ) وأفرط مقاتل في نفي الإثبات حتى جعله مثل خلقه فإن هذا معطل وذاك مشبه".

---

(١٣٠) قيل إنهم سوا حشوية نسبة إلى حشو الكلام – وقيل لأن قومًا من رعاع الرواة وفدوا على حلقة الحسن البصري فقال: (ردهم إلى حشا الحلقة).

المعتزلة وخلق القرآن:

والمتكلمون يخالفون المحدثين في الطريقة. فعلم الكلام كله نشأ حول كلام الله وصفاته والبرهنة بالأدلة العقلية على وجوب الإيمان به وبرسوله، ولقد حكموا العقل ولم يفرضوا. وأولوا آيات القرآن والأحاديث برأيهم [١٣١]. ومنها النصوص التي تظهر فيها الجسمية والمكانية. واختلفوا فيما بينهم، ثم صارت لهم حلقة تذيع أفكارهم في جامع المنصور ببغداد.

وامتدت يبن المتأخرين منهم – ومعاصري أحمد فيهم – وبين الفكر اليوناني جسور الكتب التي ترجمت بكثرة. وظهرت في مجالات المتأخرين منهم آثار الفكر اليوناني واضحة، وقد نقل أكثره إلى العربية ابتداء من أواخر القرن الثاني.

والمعتزلة مدرسة في المتكلمين، نشأت في البصرة: يقول أحمد: "فو فتشت أهل البصرة لوجدت ثلثهم قدرية".

---

(١٣١) والتفسير بالرأي يقوم على قاعدة كصمام الأمان للذين ينهجونه: فبالكتاب العزيز آيات محكمات عن أن الكتاب وأخرى متشابهات. والمحكمة هي آيات الأصول التي لا يتمارى في معناها أحد. فإذا وردت آية متشابهة أولت على أساس الآية المحكمة مثل قوله تعالى: (لا تدركه الأبصار) فهذا أصل يفسر على أساه قوله تعالى (إلى ربها نظرة) فيفسر بالرضا عنها – وتوقع العبد للنعمة من ربه. ومثل قوله تعالى: (إن الله لا يأمر بالفحشاء). فهذا أصل يفسر على أساسه قوله تعالى: (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) فتؤول لتطبق على الأصل. وأكثر المؤولين يلجئون على المجاز في أسلوب القرآن كثير من المجاز مثل عرض الأمانة على السموات والجبال فهي الطاعة. ومثل قوله تعالى: (يد الله فوق أيديهم) فهي القدرة – ومنهجهم في تفسير الحديث هو منهجهم في تفسير القرآن وهم – كالمحدثين – يبدءون من أن الله تعالى ليس كمثله شيء. أما التفسير بالمأثور فتتصدره مدرسة الطبري: بجمع الأقوال والآثار ويختار.

والتأويل قديم قد يجد المرء منه فلتات عند أهل السنة هي أدخل في التفسير، فأساليب اللغة العربية وعلوم البيان فيها كثيرة. ومنذ القرن الأول نجد مجاهدين جبر يقول في مسخ أهل السبت قدرة: إن الله مسخ قلوبهم لا أجسامهم. وللمعتزلة مئات التفاسير ألقيت كلها وفي غياهب الإهمال إلا الكشاف للزمخشري وهو من أئمة المذهب الحنفي.

والكشاف عمل ضخم في اللغة العربية وأسس بلاغتها وهو ممثل عظيم لطريقة المعتزلة.

تزعم الاعتزال في النصف الأول من القرن الثاني واصل بن عطاء [١٣٢] وعمرو ابن عبيد ثم آلت زعماته إلى أبي الهذيل العلاف (٢٣٥) فابن أخته إبراهيم بن يسار النظام (٢٢١)

---

(١٣٢) اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري فسموا المعتزلة لذلك أو لاعتزال قول الأمة أو لاعتزال صاحب الكبيرة عن المؤمنين والكافرين. وتبع واصلاً أخو زوجته عمرو بن عبيد وكانا آيتين في العبادة والزهادة والابتعاد عن السلطة وتلاهما أبو الهذيل العلاف وتلاميذه.

وقد حرصوا على أن يدخلوا آباء الخلفاء العباسيين في سند المعتزلة!

فمن قائل إن مذهبهم يرجع إلى ابن مسعود عن الرسول. وقائل إنه حدث في عهد علي بن أبي طالب. ويروون أن واصلاً أخذ عن شيخه أبي هاشم (عبد الله بن محمد بن الحنفية) الذي أخذ عن أبيه محمد، الذي أخذ عن أبيه عن علي بن أبي طالب. وعلى عن النبي ﷺ. ويعتبرون عليًا وأبا بكر وعمر وعثمان سندهم. ثم ابن عمر وأبا ذر وعبادة. وكان مركز الدائرة فكرة القضاء والقدر وإنكار الجبر. فيضعون عليًا في قمة هذا السند وفي الطبقة الثانية يضعون أهل البيت وعلى رأسهم الحسن بن علي ثم أخاه لأبيه محمد بن الحنفية. وفي الطبقة الثالثة يضعون (أبا هاشم) عبد الله بن محمد بن الحنفية (٩٨) شيخ واصل وكان قدريًا مثلهم – أما أخوه الحسن (١٠١) فكان مرجئيا – ويضعون محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في السند وهو أبو السفاح والمنصور جد المأمون الأعلى لأن محمد بن علي تعلم علي "أبي هاشم".

ولا يعزب عن البال أن دعوى أحقية بني العباس بالخلافة، من إسنادها الزعم بأن أبا هاشم شعر يدنو أجله عندما دس له السم رجال سليمان بن عبد الملك فأوصى لمحمد بن علي (١٢٤) وأفضى له بأسرار الدعوة الهاشمية ونزل له عن حقه في الخلافة.

وهكذا يجمع المعتزلة بني العباس مع أبي هاشم لسبب علمي فوق السبب الذي يروجون له فيزدادون زلفى إلى الخلفاء من أكثر من وجه.

ومن احتفال العباسيين بكل سند يجعل لهم حقًا في الخلافة دون بني علي، وكان هؤلاء لا يكفون عن المطالبة بالخلافة ولا يكف الناس عن البيعة لهم والثورة من أجلهم على العباسيين، كان السبب بن زهير الضبي وآلة مكان في دولة أبي جعفر والمهدي وهو يروي حديث (العباس عمى ووصيي ووارثي).

واشتد ساعد المعتزلة إذ انضم المأمون إليهم ووصى المعتصم بنحلتهم وهو يوصي له بالخلافة. وتابع الواثق المعتصم. وكان أبو جعفر والمهدي والرشيد أمثله عليًا للتوازن فأحسنوا الاستفادة من المعتزلة في الرد على الزنادقة. وكان زعماء المعتزلة في عهدهم عظماء في ورعهم عظمتهم في العلم، في حين كان النظام والجاحظ وثمامة الذين تعامل معهم المأمون مضرب المثل في الاستخفاف.

وإذا كان واصل وعمرو لم يطلعا على المترجمات أو كان أبو الهذيل قد أكثر الإطلاع عليها فالباحث لا يستطيع أن يستخلص تأثيرًا بالفلسفة الأجنبية في أفكارهم وإنما كانت حجج المعتزلة الأولين كلها إسلامية. لا دخل فيها لحج إغريقية أو فارسية مما تكاثر ظهوره في أعمال المعتزلة خصوصًا والمتكلمين عمومًا فيما بعد. والإجماع على أن الاعتزال في آخر تطوراته في تأثر بالفلسفة. اليونانية. ويبدو أن هذا هو المعني يقول

فالجاحظ (٢٥٥). وانتقل إلى بغداد، مع الدولة، فتزعم مدارسه فيها بشر بن المعتمر (٢١٠) ثم ثمامة بن أشرس فأحمد بن أبي داؤد.

المستشرق ديلاس أو ليرى (ويبدو أن كل أنظار المعتزلة أثر من آثار الفلسفة الإغريقية في تطبيقها على التوحيد الإسلامي).

وكان إبراهيم النظام الذي أفتتن به المأمون عالمًا في الطبيعيات شأن فلاسفة الإغريق – ويقال إنه أخذ نظريته في كون الأجسام من "أنا كساجوراس Anaxagoras" (٥٠٠ – ٤٢٧ ق. م).

وفكر الجاحظ يعكس كل علوم عصره. والمترجمات في الطليعة. وهو أول نقده أرسطو.. وأبو الحسن الأشعري الذي نتج في مدرسة المعتزلة، يقرر أن المعتزلة أخذوا رأيهم في ذات الله عن الفلاسفة. يقصد الذين كانت الصفات. بل يقرر الأشعري أن أبا الهذيل العلاف أخذ رأيه في ذات الله عن أرسطو والغزالي يقول عن فلاسفة اليونان الأقدمين: "وما وراء ذلك من نفيهم الصفات فمذهبهم فيه قريب من مذهب المعتزلة".

ومن الروايات ما ينسب إلى جعفر البرمكي (١٨٧) – (وزير الرشيد) أن معتزليًا قال له قد نقضت على أرسطو كتابه وأن جعفر قال: كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه؟ قال: أيما أحب إليك أن أقرأه من أوله إلى آخره أو من آخره إلى أوله واندفع يذكر شيئًا فشيئًا وينقضه عليه فعجب منه جعفر. مما يدل على حفظهم الفلسفة اليونانية قبل أن يختلف المأمون مع المحدثين في شكلة خلق القرآن بجيل كامل.

مجد المعتزلة العقل وقالوا إنه قادر على التمييز بين الحسن والقبيح قبل أن يرد به الشرع وأن المعارف ضرورية في حين يقول خصومهم إن التمييز بين الحسن والقبيح يثبت بالشرع. ومع أن الأمرين يتلاقيان في النهاية، إذ كل ما ورد به المشرع معقول، بمجد نقله التراث الإسلامي من الغربيين المعتزلة لتمجيدهم للعقل ولأن الفلسفة الأوروبية نقلت عنهم ... يقول المستشرق آدم منز (إن مباحث المعتزلة في ذات الله وصفاته كان لها أثر في مذهب سبينوزا ونفد التأثير من مذهب سينوزا إلى الكفر الأوروبي).

وكان عمرو بن عبيد شديدًا على الخلفاء والولاة. مر يومًا على عامل وهو يقطع يد سارق فقال: سارق السريرة يقطع سارق العلانية. وقال لأبي جعفر إذ طلب إليه أن يعلن إليه حاجة له: حاجتي ألا تبعث إلى حتى آتيك. وقال له بيانك ألف مظلمة أردد منها واحدة نعلم أنك صادق. ولما مات عمرو رثاه أبو جعفر بشعر طويل فكان أول وآخر خليفة رثى واحدًا من رعيته بالشعر. وهو صديقه من قبل الخلافة.

وعمر أبو الهذيل العلاف مائة عام (١٣٥ – ٢٣٥) وعلى يديه يتجلى أثر المعتزلة في الدفاع عن الإسلام ضد ا لزنادقة والملاحدة – روى المبرد أنه استشهد مرة في مجلس مناظرة بثلثمائة بيت من الشعر ورووا أنه أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل.

ومن المعتزلة زهاد كبار مثل جعفر بن حرب وجعفر بن مبشر وأبي موسى المردار المسمى براهب المعتزلة. رض أن يورث ورثته ماله. قيل له لم. قال: كان مالي حق الفقراء لكني خنتهم وانتفعت به طول حياتي.

واتصل الاعتزال ببني العباس أوثق اتصال. فمت إليهم بنسب علمي وبسبب سياسي. مردهما إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية. واتصل المعتزلة الأولون بخلفائهم الأولين لدفاعهم عن الإسلام ضد الزنادقة. وارتبط المتأخرون منهم في زمان أحمد بالمأمون فصيروا "خلق القرآن" محنة أي امتحانًا للناس.

وهي مقولة سبقهم إليها الجعد بن درهم وكان معلمًا لمروان بن محمد خلفاء بني أمية ولذلك يسمى مروان الجعدي. ولما أظهر الجعد فكرته أرسله الخليفة هشام ابن عبد الملك (١٢٥) إلى خالد القسري أمير العراق، فخطب خالد الناس يوم العيد الأكبر ثم أمرهم بالانصراف إلى تضحياتهم فإنه سيضحي اليوم بالجعد بن درهم! ثم نزل فذبحه.

وعلى الجعد تعلم جهم بن صفوان. وأظهر جهم بدعته بتبريز في فارس ثم نقلها إلى العراق حين نزل الكوفة، وقد قتله سالم بن أحوز المازني بمرو سنة ١٢٨ لخروجه مع الثوار على الدولة. وأصبحت الجهمية خطيئة لا تغتفر. قال أبو حنيفة لجهم إذ جادله: "الكلام معك عار والخوض فيما أنت فيه نار".

والجهمية على نقيض المعتزلة في الجبر والاختيار يقولون إن الإنسان مجبور تمامًا على فعل أفعاله وهي تنسب إليه كما تنسب الأفعال إلى الجمادات. أما المعتزلة فيقررون أن الإنسان يفعل الأفعال باختياره ويخلقها بقدرته المستقلة. ولذلك يطلق عليهم وصف القدرية. ويدفعه بعضهم فيقولون: "لا يلزمنا وصف القدرية فنحن ننفي القدر ومن أثبته أولى به" لكن الجمهور يطلق الوصف عليهم لأنهم يثبتون القدر لأنفسهم ولذلك يسمون به. والجهمية يتفقون معهم في نفي الصفات الأزلية للذات الإلهية قولاً بأن هذا تعدد للذات والصفات، وعندما ينتفي قدم صفة الكلام قدم الذات الإلهية. يكون القرآن غير قديم ويكون مخلوقًا منها، ومن اتفاق النخلتين في نفي الصفات يطلق على المعتزلة أحيانًا أنهم جهمية.

* * *

وهذان المذهبان في نفي القدر وإثباته وإثباته يسبقهما مذهبان مماثلان لليونان هما مذهب الأبيقوريين القائلين بحرية الإرادة ومذهب الرواقيين القائلين بأن الإنسان مسير لا مخير. وعلى غرار هذين المذهبين مذهبان مماثلان لليهود فمنهم الربانيون ينفون القدر والقراءون يقولون بالجبر. ثم مذهبان تاليان مسيحيان: فالمسيحيون الشرقيون يقولون إن الإنسان مخير والآخرون يقولون بالجبر. وكان يحيى الدمشقي يقول بالتخيير وهو طبيب نصراني لبني مروان.

والمؤرخون يروون في صدد فكرة خلق القرآن سلسلة يصل سندها إلى لبيد بن أعصم اليهودي القائل بخلق التوراة، والبعض يروون أن الجعدة أخذ الفكرة عن أبان بن سمعان عن طالوت بن أعصم عن عمه لبيد. واليهود يقولون بخلق التوراة. فالفكرة يهودية الأصل. وممن روجوا لها بشر المريسي وأبوه يهودي صباغ بالكوفة. ولما عرف الرشيد قوله حلف أن يقتله فاختفى طول عهده ليظهر بعد ذلك في بلاط المأمون.

وقيل إن أول من نشر في المسلمين دعوى الخلق المغيرة بن سعيد العجلي من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي فالفكرة يهودية من أكثر من وجه.

ومن ناحية أخرى لم يكن بعيدًا عن المسلمين نزاعات المسيحيين حول الكلام والذات الإلهية، والطبيعة الواحدة والطبيعتين. بل كانت الخلافات تسعى إليهم من الأديرة بحسن نية أو بسوء نية. وقد سجل التاريخ كتابًا آلفه يحيى الدمشقي في القرن الأول للهجرة – وكان هو وتيودور أبو قرة يناقشان المسلمين في الدين – وفي هذا الكتاب يدرب النصارى على زعزعة عقائد المسلمين بقوله: "إذا قال لك العربي ما تقول في المسيح فقل إنه كلمة الله، ثم ليسأل النصراني المسلم بم سمي المسيح في القرآن؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيب المسلم، فإنه سيضطر إلي أن يقول كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه. فإن أجاب بذلك فاسأله: هل كلمة الله وروحه مخلوق أو غير مخلوق؟ فإن قال مخلوق فليرد عليه بأن الله، إذن، كان ولم يكن له كلمة ولا روح – فإن قلت ذلك فسيفحم العربي لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين".

والمسلون متفقون على أن المقصود بكلمة (ألقاها إلى مريم وروح منه) أنه أنشأ المسيح عليه السلام بكلمته وأمره إذ قال له كن فكان، وأن نشأته كانت بمجرد هذه الكلمة. وهذا مفهوم قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ وليس مفهومه أن المسيح صفة لله أو ذات له وإنما مفهومه أنه خلق الله.

هكذا تسللت إلى المحيط العلمي الهادئ تيارات غريبة حقًا. تحمل زوارق الخلاف المدمر، تعكر الصفو وتفرق الشمل، وتبلغ أشدها على يد الخليفة الفيلسوف ومعلميه.

وربما أمكن التعبير إجمالاً عن الفكر المعتزل في مسألة خلق القرآن بأنهم يرون أن وحدة الذات والصفات تقتضي أن كلام الله تعالى ليس قديمًا قدم الذات، بل هو صادر عنها، وهو يشير إلى وقائع حادثة في الدنيا ورسل جاءوا على فترات وناس خلقوا وأماكن ظهرت. فهو ليس قديمًا قدم ذات الله تعالى. وإنما هو محدث منها، أحدثه الله في اللوح المحفوظ. والله سبحانه وتعالى (خالق كل شيء). والقرآن شيء فهو "مخلوق".

وتوسع علماؤهم في الكلام في مسائل نظرية تجريدةي، وأكثروا التأويل وردوا كثيرًا من الحديث، وأطلوا ألسنتهم في الصحابة، وناقشوا صحة البيعة للخلفاء. واشتهر المتأخرون منهم بإدعاء الاستعلاء والارستقراطية الفكرية [١٣٣].

---

(١٣٣) وكانت الجماعة التي زينت للمأمون القول بخلق القرآن أسوأ شيء جدلاً. وقد مر بنا أمثال من جدل المأمون ذاته لبشر بن الوليد. قاض بغداد. وسوء معاملة المأمون لقاضي دمشق.

أما ثمامة بن أشرس الذي تعلم عليه المأمون الاعتزال في مرو – فكان هزأه يتهزأ بالناس! يقول للمأمون في حضور قاضي القضاة يحيى بن أكثم: "أنا أبين لك القدر بحرفين. وأزيد حرفًا للضعيف، قال الخليفة: ومن الضعيف قال ثمامة: يحيى، قال الخليفة هات. قال ثمامة (لا تخلو أفعال العباد من ثلاثة أوجه: إما كلها من الله ولا فعل لهم – لم يستحقوا ثوابًا ولا عقابًا ولا مدحًا ولا ذمًا ... وإما أن تكون منهم ومن الله – وجب المدح والذم لهم جميعًا.. أو منهم فقط – كان لهم الثواب والعقاب والمدح والذم) قال الخليفة: صدقت.

وكان أبو العتاهية وثمامة يتناظران في الموضوع ذاته بين يدي المأمون. والمأمون يقول لأبي العتاهية، حذرًا من سلاطة ثمامة: عليك بشعرك. قال أبو العتاهية (٢١١): إن رأي أمير المؤمنين أن يأذن له في مسألة ويأمره بإجابتي؟ فقال المأمون لثمامة أجبه. فسأله أبو العتاهية قائلاً بعد إذ حرك يده – أنا أقول إن كل ما فعله العباد من خير وشر فهو من الله! وأنت تأبى ذلك! فمن حرك يدي هذه؟ قال ثمامة: من أمة زانية. قال أبو العتاهية شاعر الورع – للخليفة: شتمني والله يا أمير المؤمنين!! قال ثمامة: ناقض! (واستمر يشتم) وضحك المأمون وقال: ألم أقل لك أن تشتغل بشعرك وتدع ما ليس من عملك؟ ويروي ثمامة أن أبا العتاهية لقيه بعد ذلك فعاتبه فأجابه (إن من أتم الكلام ما قطع الحجة وعاقب على الإساءة وشفى من الغيظ وانتصر من الجاهل).

وكان حسب ثمامة أن يقول لأبي العتاهية إنه إذا اعتبر الشتم موجهًا إلى شخصه قد أقر بأنه هو الذي حرك يده.

وكان المأمون مفتونًا بالنظام. وهو شيخ الجاحظ. والجاحظ يقتدي في عنف الكلام بالنظام، وفي الفكاهة والمجانة بثمامة. فعاب الجاحظ كل شيء حسب لاظروف، وصارت السخرية ظاهرة جاحظية بما فيها من نيل من الناس، يميل إليها في موافقة، ميله إليها في أسلوبه، وفي حق نفسه. كما يميل إليها في حق غيره، مع الاستعلاء أو الاعتداء. قتل ولي نعمته محمد بن عبد الملك الزيات الذي يتهم من البعض بالزندقة ثم جيء بالجاحظ موثقًا بالحديد بين يدي ولي نعمه جديد هو قاضي القضاة أحمد بن أبي داؤد فجرى بينهما الحوار التالي:

ما تأويل هذه الآية (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد؟) وأجاب الجاحظ: (تأويلها تلاوتها – أعز الله القاضي).

قال القاضي: جيئوا بحداد؟

أهل السنة:

وأهل السنة هم الوسط الخبر – يؤمنون بالقدر[١٣٤] ويرون أن التفويض لا يسلب العبد اختياره لعمله. فهو يتوجه إليه بإرادته. الله سبحانه خالق والعبد كاسب بعزمه وتصميمه، لا يتمارون في الصفات التي وصف بها الله تعالى نفسه. فلا مراء في الاستواء على العرش أو العلم أو القدرة أو الكلام وما إليها، كما وصف الله تعالى نفسه، بل يؤمنون بها كما جاءت وكما آمن الصحابة، ولا يتعرضون لها بتأويل كما لم يتعرض الصحابة لها، وفي الوقت ذاته ينزهون الذات الإلهية عن تمثيلها بالناس فلا تشبه الذات الإلهية وأعمالها بالرجال وأعمالهم، ولا يشبه استواؤها على العرش باستواء الناس، ولا اتساع الكراسي للسموات والأرض بكرسي أو عرش مما يتعارفه الناس للناس، فقدرته التي تسع السموات والأرض وتستولي على الوجود وتحكمه مسلمة، والتعبير عنها بهذا اللسان العربي مألوف لمن أدرك اللسان العربي، وفي إضافة الصفات للذات

قال الجاحظ: ليفك عني أو ليزيدني – أعز الله القاضي؟

قال القاضي: ليفك عنك.

وغمز بعض الحضور الحداد ليطيل أمره قليلاً – ففعل. فلطمه الجاحظ. وقال: اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة فإنه الضرر على ساقي وليس على جذع ولا ساجة. فضحك أهل المجلس. وسنرى بعد أمثالاً أخرى من وصف الجاحظ لنفسه.

والصاحب بن عباد وزير من كبراء المعتزلة ومن أشدهم كبرياء يحكي شدة المحال من أصحابه في وصف أشواقه:

ولما تنامت بالأحبة دراهم — وصرنا جميعًا من عيان إلى وهم

تمكن مني الشوق غير سامح — كمعتزلي قد تمكن من خصم

(١٣٤) يقول يحيى بن يعمر: كان أول من تكلم في البصرة معقد الجهني (٨٠) فانطلقت أنا وحميد ابن عبد الرحمن فوفق لنا عبد الله بن عمر داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي.. فقلت: يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويفتقرون العلم وأنهم يزعمون أن لا قدر. وأن الأمر أنف فقال: إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم إني برئ منهم وأنهم براء مني – والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل منه حتى يؤمن بالقدر. (الأمر أنف أي مستأنف يقصد أن الله لا يعلم الأمور إلا بعد وقوعها. يتقفرون العلم أي يقتفون أثره في القفار والفوات أي يجتهدون).

وقيل إن أول من تكلم في القدر نصراني بالعراق أسلم ثم تنصر. وأخذ عنه غيلان الدمشقي ومعبد الهني وأن معبدًا كان يجالس الحسن البصري وقيل إن عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة أخذ رأيه في القدر عن رجل من الأساورة يقال له أبو يوسف الأسواري.

العليا المنزهة عن المشابهة تخصيص لمعانيها بما يليق بالذات الكريمة وكمالها المطلق – فإذا وصف الله عز وجل نفسه بالعلم أو بأن له يدًا أو استواء فذلك كله خاص به جل ثناؤه.

وابن عباس يقول: "ليس في الدنيا مما في الجنة سوى الأسماء" والسلف كما يقول ابن تيمية: "لا يمثلون صفات الله بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله".

ويروي الخلال في مسنده عن الإمام أحمد أنهم سألوه عن الاستواء فقال: "استوى على العرش كيف شاء وبلا حد وبلا صفة يبلغها واصف".

وليس ذلك تشبيهًا ولا تخريجًا على الظاهر وإنما هو تفويض.

ويقول أحمد: "احتجوا على يوم المناظرة فقالوا: تجيء يوم القيامة سورة البقرة وتجيء تبارك فقلت إنما الثواب قال الله جل ذكره: ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً** ﴾ وإنما تأتي قدرته".

وأحمد في ذلك يفسر القرآن بالقرآن أو الحديث. وهو منهج البلغاء والمحيطين. فيرى أن الآيات والأحاديث صريحة في رؤية الله أن النبي كان يعرف معنى الرؤية وقال: "إنكم سترون ربكم" والله تعالى يقول: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾ لموسى ولم يقل لن أرى.

ويرى أحمد أن الآيات في ذلك صريحة والأحاديث صحيحة. يقول تعالى: ﴿**وكلم الله موسى تكليمًا**﴾، ويقول الرسول: "ما منكم إلا سيكلمه ربي وليس بينه وبينه ترجمان".

وأما أن يكون الكلام بجوارح فهذا خطأ. ففكرة الجوارح هي التي أوقعت المعتزلة في الخطأ. فالله تعالى يقول: ﴿ **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ** ﴾ أتراها سبحت بلسان وفم وشفتين؟

ولا يحتج على إمام أهل السنة بكلام الحشوية من مذهبه أو مذهب غيره [١٣٥] كأتباع خشيش بن أصرم (٢٥٤) أو السالمية أتباع محمد بن سالم (٢٩٧) وابنه أحمد (٣٥٠) القائلين

---

(١٣٥) يقول ابن الجوزي (رأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لا يصلح – ونصفوا كتبًا شانوا بها المذهب، ورأيتهم نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس فسموا أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على صورته فأثبتوا له صورة ووجهًا زائدًا على الذات وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات فسموها بالصفات تسمية مبتدعة ولا دليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل ولم يلتفوا إلى النصوص

بأن الله يتلو القرآن على لسان كل قارئ! أو الكرامية أتباع محمد بن كرام (٢٥٦) الذين يقولون إن الله جسم وإنه جالس مستقر على عرش، أو البريهارية الذين عظمت مكانتهم في القرن الرابع ببغداد [١٣٦].

وابن أبي الحديد نفسه، وهو الشيعي المعتزلي، يقول إن أحمد يختلف عن الكرامية أشد الاختلاف إذ ينادي فقط بترك التأويل. ويطلق ما أطلقه الكتاب والسنة، ويقف على قول الله ﴿**وما يعلَمُ تأويلهُ إلاَّ الله**﴾ بدون تشبيه ولا تجسيم".

* * *

بعث أحمد للخليفة المتوكل على نحو عشرين عامًا من محنة الخلاف الذي شجر بينه وبين المأمون وخليفته اللذين ناصرا المعتزلة رسالة تبين طريقة أهل السنة فقال فيما قال: "ذكر عن عبد الله بن عباس أنه قال: "لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم". وذكر عن عبد الله بن عمر أن نقرأ كانوا جلوسًا بباب النبي ﷺ فقال بعضهم ألم يقل الله كذا. وقال بعضهم ألم يقل الله كذا. فسمع رسول الله ﷺ فخرج وكأن في وجهه حب الرمان فقال: "أفبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ إنما ضلت الأمم قبلكم بمثل هذا. إنكم لستم مما ها هنا في شيء. انظروا الذي أمرتم به فاعلموا به وانظروا الذي نهيتم عنه فانتهوا عنه".

وروى عن أبي هريرة عن النبي صفى أنه قال: "مراء في القرآن كفر" وروى عن أبي جهم – رجل من أصحاب النبي ﷺ – أنه قال: "لا تماروا في القرآن فإن مراء فيه كفر".

الصارفة عن الظواهر إلى المعاني الواجبة لله تعالى: ولم يقنعوا بأن يقولوا "صفة فعل" حتى قالوا: "صفة ذات" ثم لما قالوا إنها صفات قالوا لا نحملها على توجيه اللغة مثل يد على نعمة وقدرة، ولا مجيء وإتيان على طلف وبر. ولا ساق على شدة. والشيء إنما يحمل على حقيقته إن أمكن – فإن صرف صارف حمل على المجاز .. وقد تبعهم خلق كثير من العوام وقد نصحت التابع والمتبوع .. إمامكم الأكبر (أحمد بن حنبل) يقول وهو تحت السياط: كيف أقول ما لم يقل فإياكم أن تبتدعوا في مذهبه ما ليس منه. وإياكم أن يهمل ما يثبت به الأصل. وهو العقل. فلو أنكم قلتم نقرأ الأحاديث ونسكت. لما أنكر أحد عليكم. وإنما حملكم إياها على الظاهر قبيح. فلا تدخلوا في مذهب هذا الرجل السلفي الصالح ما ليس فيه).

(١٣٦) أتباع محمد بن الحسن بن علي البربهاري وفيه يقول السمعاني في الأنساب: كان له أصل صحيح وسماع صحيح أو أصل ردئ! وسماع ردئ. يحدث بذا أو بذاك والمقدسي يقول: (أما البربهارية فإنهم يجهرون بالتشبيه والمكان ويرون الحكم بالخاطر. ويكفرون من خالفهم. ويتمسكون بحديث المقام المحمود).

قال عبد الله بن عباس: قدم على عمر رجل فجعل عمر يسأله عن الناس فقال: يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا. قال ابن عباس والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن فزبرني عمر وقال: مه. فانطلقت على منزلي مكتئبًا فبينما أنا كذلك إذا أتاني رجل فقال: أجب أمير المؤمنين. فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرني فخلا بي فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفًا فقلت: يا أمير المؤمنين متى تسارعوا في هذه المسألة يحتفوا، ومتى ما يختفوا يختصموا ومتى ما يختصموا يختلفوا ومتى ما يختلفوا يقتتلوا قال: لله أبوك والله إن كنت لأكتمها على الناس حتى جئت بها.

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال – جردوا القرآن ولا تكتبوا فيه إلا كلام الله، وقال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد إني إذا قرأت كتاب الله وتدبرته كدت أن آيس وينقطع رجائي. فقال الحسن: القرآن كتاب الله وأعمال بني آدم إلى الضعف والتقصير فاعمل وأبشر.

وقال رجل للحكيم بن عيينه: ما حمل أهل الأهواء على هذا؟ قال: الخصومات. وقال معاوية بن قرة وكان أبوه ممن أتى النبي ﷺ: إياكم والخصومات فإنها تحبط الأعمال. ودخل رجلان من أهل الأهواء على محمد بن سيرين فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال لا – فقالا – نقرأ عليك آية من كتاب الله. قال لا – قومًا عني أو لأقومن. فقام الرجلان فخرجا. فقال: إني خشيت أن يقرأ علي آية من كتاب الله فيحرفاها فيقر ذلك في قلبي.

وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختياني: يا أبا بكر أسألك عن كلمة؟ قولي وهو يقول بيده: ولا نصف كلمة.

وقال طاوس بن طاوس لابن له، وتكلم رجل من أهل البدع، يا بني أدخل اصبعك في أذنيك حتى لا تسمع القول. ثم قال اشدد اشدد.

وقال عمر بن عبد العزيز: "من جعل دينه عرضه للخصومات أسرع التنقل" وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ: اتقوا الله معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم، والله لئن أسبقتم لقد أسبقتم سبقًا بعيدًا ولن تركتموه يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا. أو قال مبينًا..

ولقد قال الله تعالى: ﴿**'لاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ**﴾ فأخبر (بالخلق) ثم قال: (والأمر) فأخبر أن الأمر غير الخلق – وقال تعالى: ﴿ **الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ فأخبر تعالى أن القرآن عن علمه.. وقال: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا**

تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ﴾

ويقول أحمد: وقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون: "القرآن غير مخلوق" وهو الذي أذهب إلهي. لست بصاحب كلام. ولا أرى الكلام في شيء من هذا الأمر إلا ما كان في كتاب الله أو حديث النبي ﷺ أو عن أصحابه أو عن التابعين. فأما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود.

obeikandl.com

اتخاذ موقف:

ولئن كانت صياغة الأفكار العظيمة عملاً صعبًا. إن وضع الصيغ في قالب عملي تستيسره الجماهير، مع الدقة العلمية، عمل أصعب. لكن الشدائد تستحيل بسائط في أيدي الأئمة. وهي أبسط في يد إمام تتابعه الأمة وتجتهد معه. خصيصته الأولى هي الورع. وطريقته في الفقه سد الذريعة إلى أي مفسدة.

ومن الفساد الإفاضة في خلافات سبق إليها الزنادقة والوثنيون واليهود والمسيحيون فانقسموا. وما يزالون منقسمين. وهي في أفواه المعتزلة كلمات، لكنها على مستوى الأمم مذابح للملايين – كما سنرى بعد – وانقسامات يحمل همها من يحمل مسئولية الأمة.

أعلن أحمد رأيه العلمي من صميم أصوله الفقهية وهو هنا سد الذريعة بالنهي البات عن الكلام في شيء من هذا الأمر، إلا بما في كتاب الله أو حديث النبي.

ثم أبرز الرأي العلمي في "موقف عملي" بصرت به الأمة وهو يصنعه. بل شاركته في إبان صنعه – إذ يفعل الفعل ويتحمل رد الفعل – فأحسنت فهمه. يستوي في ذلك القادرون على الاجتهاد الكامل أو الاجتهاد النسبي أو الجماهير التي يحمل مسئولية عملها من تقلده.

وزادته السماء قوة وفعالية إذ قدرت أن يكون هذا الموقف العملي كالإعلان العالمي من أعلى مستوى يتاح لبشر بعد الأنبياء... من قمة الإمامة الدينية. ومن قصر الخلافة. وأن يسيل من أجله دمه بين أيدي الأمة. لتتابعه عن بصيرة.

والمبادئ الكبيرة تدخل التاريخ بالمواقف الكبيرة.

يقول لحنبل عن المتكلمين: لا تجالسهم ولا تكلم أحدًا منهم – ولما قال له تلميذ: إني ربما رددت عليهم رد قوله: "اتق الله ولا ينبغي أن تنضب نفسك وتشتهر بالكلام لو كان في هذا خيرًا لتقدمنا فيه الصحابة، هذه كلها بدعة" ولما أجاب تلميذه: إني لست أطلبهم ولا أدق أبوابهم ولكني سمعتهم يتكلمون بالكلام ولا أحد يرد عليهم ولا أصبر حتى أرد عليهم. قال أحمد: إن جاءك مسترشد فأرشده. قالها مرارًا.

وكثيرًا ما سمع يقول: من أحب الكلام ولم يفلح ولا يؤول أمرهم إلى خير.

قيل له إن هنا من يناظر الجهمية ويبين خطأهم ويدقق عليهم. قال: لست أرى الكلام في شيء من هذه الهواء.. أليس قال معاوية بن قرة (الخصومات تحبط الأعمال) والكلام رديء

لا يدعو إلى خير.. تجنبوا أهل الكلام وعليك بالسنن وما كان عليه أهل العلم قبلكم. فإنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض مع أهل البدع. وإنما السلامة في ترك هذا – لم نؤمر بالكلام والخصومات.

ووضح أحمد أسس هذا الموقف العلمي "في رسالة أنفذها إلى مسدد بن مسرهد إذ طلب إليه أن يكتب إليه بسنة رسول ﷺ"، وبكى أحمد وقال: إنا الله وإنا إليه راجعون. يزعم هذا البصري أنه أنفق في العلم مالاً كثيرًا وهو لا يهتدي بسنة رسول الله ﷺ! ثم كتب إليه في كتاب طويل حسبنا منه شذرات:

أما بعد.... وما تكلم به الله فليسي بمخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر بالله ومن لم يكفرهم فهو كافر [١٣٧].. والإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، زيادته إذا أحسنت ونقصانه إذا

---

(١٣٧) ظاهر أن أحمد لا يكفر أهل بدع مطلقًا إنما يكفر بدعتهم وكذلك الأئمة لا يكفرونهم وإن استعملوا ألفاظًا شديدة كالكفر، ومن ذلك أن الشافعي ناقش حفصًا الفرد حين قال القرآن مخلوق وقال له كفرت بالله العظيم قاصدًا أن كلامه كفر – ولو كان يقصد أنه كفر بالإسلام لسعى في قتله قتل المرتد – ولما انتهى من نصح بشر المريسي اقتصر على القول إنه لا يفلح.

وأحمد لا يكفر إلا من يجحد فرائض الإسلام لأنه جاحد للأصل أما من تركها تهاونًا وكسلاً فإنه في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. أما قتل الداعية إلى البدعة فقد يكون لكف ضرره عن الناس كقطاع الطريق.

ولقد بدع على في أنصاره قرونًا ثلاثة – أمر يقتل اثنتين ويجلد الثالثة، فالذين ألهوه خد لهم الأخادية وأضرم فيها النار وقذفهم فيها، وأما ابن سبأ الذي سب أبا بكر وعمر فأمر بقتله. فهرب إلى قرقيسيا وكان علي رضي الله عنه بداري امرأة، لأنه لم يكن متمكنًا ولم يكونوا مطيعين له في كل ما يأمرهم به، أما الذين فضلوه على أبي بكر وعمر فأمر بجلدهم حد المفترى.

ولعل من المقيد في هذا المقام أن نثبت بعض ما يقوله الغزالي (٥٠٥) "واعلم أن حقيقة الكفر والإيمان وحدهما والحق والضلال وسرهما لا يتجلى للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما، بل إنما ينكشف دون ذلك القلوب طهرت عن وسخ أوضار الدنيا أولاً ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانيًا. ثم نورت بالذكر الصافي ثالثًا ثم غذيت بالفكر الصائب رابعًا ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامسًا حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة".

ويقول عن المجادلين: "الأنفع الكلام الجاري في معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن فأما الكلام المحرر على رسم المتكلمين فإنه يشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعة جدل ليعجز عنه العامي – لا لكونه حقًا في نفسه وربما يكون ذلك سببًا لرسوخ العناد في قلبه ولذلك لا نرى مجلس مناظرة للمتكلمين. ولا للفقهاء ينكشف عن واحد ينقله من الاعتزال أو بدعة إلى غيره ولا عن عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات.

أسأت، ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام.. ولا يخرجه من الإسلام إلا الشرك بالله، أو برد فريضة من فرائض الله جاحدًا لها. فإن تركها تهاونًا وكسلاً كان في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. وأما المعتزلة فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم أنهم يكفرون بالذنب، فمن كان كذلك فقد زعم أن آدم كافر وإن أخوه يوسف حين كذبوا أباهم كفار. وأجمع المعتزلة أن من سرق حبة ي النار، تبين منه امرأته – ويستأنف الحج إن كان حج. فهؤلاء الذين يقولون هذه المقالة كفار وحكمهم ألا يكلموا. وأما الرافضة... قالوا إن عليًا أفضل من أبي بكر وأن إسلام علي أقدم من إسلام أبي بكر. فمن زعم أن عليًا أفضل من أبي بكر فقد رد الكتاب والسنة، ومن زعم أن إسلام علي كان أقدم من إسلام أبي بكر فقد أخطأ، لأن أبا بكر أسلم وهو ابن خمس وثلاثين سنة وعلي يومئذ ابن سبع سنين لم تجر عليه الأحكام والحدود والفرائض.. ويؤمن (المسلم) بالقضاء خيره وشره، وحلوه ومره، من الله. وأن أهل الجنة يرون الله بأبصارهم لا محالة.. وأن الله كلم موسى تكليمًا.. والإيمان بالحوض والشفاعة والإيمان بالعرش والكرسي.. واحذر البدع كلها (مع) الدعاء لأهل السنة بالصلاح. ولا يخرج عليهم بسيف. ولا يقاتل في الفتنة. أماتنا الله وإياكم على الإسلام والسنة".

ويقول أحمد: "ومن السنة.... والإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث والإيمان بها. لا يقال لم ولا كيف.. ومثل أحاديث الرؤية كلها.. ولا نتعلم الجدال فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن وغيرهما من السنن مكروه. منهي عنه. لا يكون صاحبه، وإن أصاب كلامه

ولا يلزم كفر المؤولين وكيف يلزم الكفر بالتأويل؟ وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمة الله عليه – والحنبلي مضطر إليه وقائل به فقد سمعت الثقاة من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون إن أحمد بن حنبل رحمه الله صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط أحدها قوله ﷺ: (الحجر الأسود يمين الله في الأرض)، والثاني قوله ﷺ: (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن)، والثالث قوله ﷺ: (إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن) وإنما اقتصر أحمد بن حنبل رضي الله عنه على تأويل هذه الأحاديث لأنه لم تظهر عند الاستحالة إلا في هذا القدر..

ويقول الغزالي: (اعلم أن شرح ما يكفر به وما لا يكفر به يستدعي تفصيلاً طويلاً فأقنع الآن بوصية وقانون، أما الوصية فإن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أسكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وأما القانون: (فهو أن تعلم أن النظريات قسمان – قسم يتعلق بأصول القواعد وقسم يتعلق بالفروع، وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر. وما عداه فروع. واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألة واحدة وهي أن ينكر أصلاً دينيًا من رسول الله ﷺ بالتواتر. لكن في بعضها تخطئه كما في الفقهيات. وفي بعضها تبديع. كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة..".

السنة، من أهل السنة. حتى يدع الجدل ويسلم ويؤمن بالآثار. والحديث عندنا على ظاهره كما جاء عن النبي ﷺ والكلام فيه بدعة، ولكن نؤمن به على ظاهره ولا نناظر فيه أحدًا. والسمع والطاعة للأئمة. وأمير المؤمنين البر والفاجر ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين.. والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة. وليس لأحد أن يطعن عليهم"..

ويقول: "من فضل عليًا على عثمان فقد أزرى بأصحاب الشورى، ومن قدم عليًا على أبي بكر فقد طعن على رسول الله، ومن قدمه على عمر فقد طعن على رسول الله وأبي بكر وعمر والمهاجرين ولا أحسبه يصلح له عمل".

ويقول: إن الخلافة لم تزين عليًا بل علي زينها – وما لأحد من الصحابة بالأسانيد الصحاح مثل ما لعلي رضي الله عنه.

ويرتب الصحابة على قدر الهجرة السابقة أولاً بأول، ثم من صحبه سنة فأقل، ولو ساعة، ويقول: "إذا رأيت الرجل يتهم أحدًا من أصحاب الرسول عليه السلام فاتهمه على الإسلام".

ولما قيل له إن ها هنا رجلاً يفضل عمر بن عبد العزيز على معاوية بن أبي سفيان، قال: "لا تجالسه ولا تشاربه وإذا مرض فلا تعده".

هذه الشذرات من أقوال أحمد تبسط الأساس العلمي الدقيق لموقفه العلمي من شتى أقاويل عصره.

* * *

والتعبير عن قدرة الخالق سبحانه وتعالى جدير بالاحتياط. روى بقية بن الوليد: سئل الزبيدي والأوزاعي عن الجبر فقال الزبيدي: أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ولكي يقضي ويقدر ويخلق ويحيل عبده على ما أحب. وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر أصلاً في القرآن والسنة وأهاب أن أقول ذلك ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل. فهذا يعرف من القرآن والحديث.

وأحمد كمثلهما لا يجيز أن يقال جبر الله العباد، ويستعمل دائمًا نصوص الكتاب والسنة، لأن النصوص أصول، ولقد أسعفه النصوص في كل فقه، فاستعمال النص من القرآن في أخذ

الحكم أو الرأي منهجه العام، ومن هنا كانت طريقته في تفسير القرآن بالقرآن طريقة منهجية عنده يلجأ إليها في كل مقام.

والتعبير عن القرآن بأنه مخلوق هو قبل كل شيء تعبير مريب – ينزل القرآن منزلة المخلوقات في العرف العام. وقد يتبادر منه إلى ذهن السامع معنى الاختلاق.

إن الخليل بن أحمد عالم العربية، ومعلم علمائها، يرى كلمة (الخلق) تقابل كلمة الاختلاق – وأن الكلام متى وصف بالخلق فالقصد به الكذب، فيقال كلام خلقه فلان أي تقوله. ولهذا لم يستعمل بعض الذين سايروا المعتزلة كلمة الخلق وقالوا نقول محدث ولا نقول مخلوق.

وأحمد يبدع من يخوض في هذا الخلاف من أي طرف. لما يثيره من بلبلة ولما يفتحه من أبواب للفتنة[١٣٨].

والحافظ الذهبي (٧٤٨) يجمل موقف أحمد في كلمات:

إن الملفوظ كلام الله وإنما المخلوق هو التلفظ به. أي الحركة والصوت وإخراج الحروف فإن هذا ما يحدثه القارئ – والقارئ لا يحدث حروف القرآن ولا معانيه – فاللفظ قدر مشترك بين هذا وهذا. ولهذا لم يجوز أحمد لفظي بالقرآن مخلوق ولا غير مخلوق. والسلف لم يكونوا يرضون عن الخوض في الأمر وإن كان رأيهم معروفًا أن القرآن غير مخلوق بمعناه ولفظه.

والصحابة لم يتكلموا في كون القرآن قديمًا قدم الذات الإلهية، مع أن الكلام صفة المتكلم ومع أن الذات تقترن بالصفات. والسلف يقولون لم يزل الله متكلمًا إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي. وما تكلم به فهو قائم ليس مخلوقًا منفصلاً عنه، فلا تكون الحروف هي التي هي معاني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة لأن الله تكلم بها.

وكذلك لم يتكلم أحمد في مسألة القدم أو عدمه وإنما دار الخلاف حول رفضه القول بخلق القرآن، ومن ثم تخلص لنا أمور:

الأول: من جانب أحمد. وهو أن امتناعه عن القول بخلق القرآن مرده إلى موقف علمي، هو منهجه في تفسير القرآن والسنة بالقرآن والسنة. أي استنباط الأحكام من النصوص وهذا منهجه في أصول الفقه يطبقه في أصول الدين. والثاني: من جانب المعتزلة. وهو أنهم لم يتح

---

(١٣٨)

لهم مجادلة الإمام، لأنه لا يأذن بجدال في القرآن، وإن كانوا سيلقونه وهم على مقاعد الجدال الوثيرة وهو مقيد في الأغلال، ينهش الجلادون جسده بالسياط ليقول بما يراد منه أن يقوله. والثالث: من جانب الفكرة ذاتها، وهو أن أحمد لم يتكلم في أن القرآن قديم قدم الذات الإلهية أو أن الذات الإلهية هي كلامها. ولا يتعارض ذلك مع قدم الذات والصفات. فالكلام الذي يصدر عن متكلم أمر آخر غير صفة الكلام.

* * *

وأبو حنيفة يقول: "إن الله لم يزل بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية" ويفسر القرآن بالقرآن فيقول في كتاب الفقه الأكبر: "إن الله تعالى واحد لا من طريق العدد ولكن من طريق أنه لا شريك له. بل هو ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤)**﴾ ويقول: "لا يشبه من خلقة ولا يشبهه شيء من خلقه".

ويرى ابن تيمية تلازمًا بين كون القرآن قديمًا وكونه غير مخلوق أن كل ما ينسب إلى الذات العلية يصدر عنها ويعتبر قائمًا وقت حدوثه، فالله خالق والمخلوق حادث وذات الخلق والإيجاد حادث بحدوث موضوعه، والخلق والإيجاد لا يقال إنهما مخلوقان ولا يقال إنهما قديمان، والفلاسفة هم الذين أوجدوا التلازم بين القدم وكونه غير مخلوق بفروضهم العقلية، والسلف متفقون على أن كلام الله منزل. وظن بعض الناس أن مرادهم أنه قديم العين.

ويقول: أول من عرف أنه قال: "القرآن قديم" ابن كلاب (أبو محمد عبد الله ابن القطان الكلابي مات سنة ٢٤٠) وتبعه على ذلك طوائف. وليس هذا القول.. قول أحد الأئمة الأربعة وكان الذي ثبته الله في المحنة وأقامه لنصر الله هو الإمام أحمد... وإن كانت طائفة من أصحابه وافقوا ابن كلاب في قوله إن القرآن قديم فأئمة أصحابه على نفي ذلك وإن كلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلمًا بمشيئته وقدرته.

يقول ابن كلاب [١٣٩] إن كلام الله نوعان: الكلام النفسي وهو قديم والكلام المتعلق بالأمر والنهي والخبر. وهي التكاليف وغيرها. وهي حادثة من الله لأن الأمر بالمعروف والنهي

---

(١٣٩) كان ابن كلاب يحضر مجالس المأمون ويناقش المعتزلة فنسبوه إلى الحشوية بل اتهموه بأنه نصراني بدعوى أنه يقول: "إن كلام الله هو الله". ويقول أبو العباس البغوي دخلنا على فثيون النصراني وكان في دار الروم في الجانب الغربي فجرى الحديث إلى أن سألته عن ابن كلاب فقال: رحم الله عبد الله كان يجيئني فيجلس إلى تكل الزاوية – وأشار إلى ناحية البيعة – وعنى أخذ هذا القول ولو عاش لنصرنا جميع المسلمين.

والخبر لا يكون كذلك إلا عند وجود المخاطبين وهؤلاء يحدثون. ويرد عليه أهل السنة بأن القدم يشمل الكل، والناس هم الذين يحدثون، أو كما يقول إمام الحرمين: "إنا نجوز كون المعدوم مأمورًا على تقدير الوجود وإذا وجد تحقق كونه مأمورًا).

وفي حين كان أحمد يشتد على ابن كلاب وغيره لإيغالهم في "الكلام" ترى ابن تيمية يثني على ابن كلاب لنقضه كلام الشيعة والمعتزلة وينفي عنه تأثره بالمسيحية، بل ترى هل التقسيم من ابن كلاب يمهد الذهن للتقسيم الشهير الذي تقدم به فيما بعد أبو الحسن الأشعري (٣٣٠) وكان كبيرًا في المعتزلة [١٤٠] ففارق نحلتهم إلى مذهب الجماعة واعتكف خمسة عشر يومًا ثم ظهر فنادى: "يا معشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي شيء فاستهديت الله فهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتبي وانخلعت من جميع ما كتبت كما انخلعت من ثوبي هذا". وخلع ثوبًا كان عليه ورمى به. وانضم إلى عقيدة أحمد بن حنبل. ومن الكتاب من يعتبره أقرب إلى ابن حنبل من ابن عقيل وابن الجوزي العالمين الكبيرين في المذهب.

قال في مقدمة كتابه الإبانة (وديانتنا التي نؤمن بها.. نتمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون وبما كان عليه أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته.. وإن خالف قوله مجانيون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله بظهوره الحق عند ظهور الضلال وأوضح عن المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين.. ونقول إن القرآن كلام الله غير مخلوق وإن من قال بخلق القرآن كان كافرًا. وندين أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة"...

وجهد ما قاله في موضوع خلق القرآن أن معاني القرآن قديمة لأن المعنى النفسي قديم أزلي لكن الكلمات المكتوبة المقروءة مخلوقة أي حادثة – يطلق عليها كلام الله مجازًا. والحروف

وأثر ابن كلاب ظاهر في التقسيم الذي خرج به الأشعري وربما أثر في ذيوع اسم ابن كلاب مؤاخذة الإمام أحمد له من جراء الكلام في المسألة.

(١٤٠) أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ – ٣٢٤) من نسل أبي موسى الأشعري وهو تلميذ علي الجبائي وزميل في الدرس لابنه أبي هاشم الجبائي ولكل من على وأبي هاشم مدرسة في المعتزلة الأولى تسمى الجبائية والثانية البهشمية. وعن الأشاعرة الباقلاني وإمام الحرمين والغزالي وكثير من العلماء.

المقطعة والأجسام والألوان والأصوات التي تقرأ القرآن أو يكتب بها القرآن مخلوقة من الذين يعملونها.

وفي الوقت ذاته وجد الحشوية الذين يقولون إن الحروف المقطعة والأجسام التي تكتب عليها والألوان التي يكتب بها وما بين الدفتين، كلها قديمة، بل يقول السالمية: "إن الله خالق في كل آية وعلى الأخص لسان كل تال للقرآن... ويتجلى الله في الدنيا لأوليائه".

عدم القبول:

ظاهر لدينا الآن بعد بضعة عشر قرنًا سكت فيها الغضب وذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الأمة من علم العلماء واجتهادهم، بما فيهم المعتزلةن إنه إذا كان مفهومًا أن كتابة الناس أو ألفاظهم هي من عملهم، وإن كلمات القرآن هي كلمات الله جل شأنه بحروفها وبمعانيها، وإن المعاني قديمة أزلية، وإن الكلمات تكلمت بها الذات الإلهية كلماتها لا تنفصل عنها، فإن ضجة القائلين بخلق القرآن كانت صدى لخلافات منهجية ضخمها تدخل السياسة وأسكتها الموقف العظيم لأحمد بن حنبل ومن سار سيرته. وإن منطق المعتزلة وقهرهم الناس عليه يجعل القرآن محل جدل مستمر. يفرض فيه رأي بالجدل أو بالقوة وينفيه الجدل والقوة، فتنفتح أبواب المراء. وهو خطر تسد الذرائع إليه في كل المذاهب. وأن المحاولة العقيمة التي قام بها المعتزلة في هذا الصدد لم تكن فيها فائدة في العقيدة، أو في عمل صالح، بل كانت رياضة جدلية فيها تشقيق كلام وتشكيك فكر وتقسيم وحدة.

ثم كانت سيرة الذين نذروا أنفسهم نفرضها مانعًا من قبولها، يقول أبو حيان التوحيدي في المتكلمين: "إن الطريق التي لزمها وسلكوها لا تفضي بهم إلا إلى الشك والارتياب، لأن الدين لم يأت بكم ولا كيف في كل باب" ويقول: "كان لأصحاب الحديث، أنصار الأثر، مزية على أصحاب الكلام – والقلب الخالي من الشبيهة أسلم من الصدر المحشو بالشك والريبة. ولم يأت الجدل بخير قط.. يتكلم أحدهم (المتكلمين) في مائة مسألة ويورد مائة حجة ثم لا ترى عنده قلبًا خشوعًا ولا رقة ولا تقوى ولا دمعة".

بل إن منهم من كان سخرة في مواقف الجد العظيم: كان الخليفة الواثق بزعم أنه يحتسب خطاه وهو يفصل بالسيف رأس أحمد بن نصر عن جسده وهو في الثمانين من أجل خلق القرآن، ويترك أسارى المسلمين في رق الروم ما لم يقولوا بخلق القرآن! يدخل عليه عبادة المخنث يقول: "يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن فيقول الخليفة: القرآن يموت! فيجيبه المخنث: يا

أمير المؤمنين كل مخلوق يموت – والله عليك يا أمير المؤمنين من يصلي بالناس إذا مات القرآن"؟ ولا يؤدبه أمير المؤمنين بل يكتفي بقوله: "قاتلك الله أمسك".

وتصبح المزحة بكل ما فيها من رذالة ومهزأة تراثًا للمعتزلة يتوارثونه في المجالس، فيترقى أو يتدهور من المحنث إلى الصاحب بن عباد عميد الاعتزال في القرن الرابع. يقول له البعض: لو كان القرآن مخلوقًا لجاز أن يموت ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلي التراويح في رمضان؟ ويجيب الوزير: لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضًا. ويقول لا حياة لي بعدك ولا تصلي التراويح وتستريح.

وكما يتنادر المعتزلة بخلق القرآن يتنادر بالقدر الفارغون. قالوا أصاب سلام القارئ غلامًا له على جارية فقال: له يا هذا ويلك فقال: كذا قضاء الله. قال: فأنت حر لعلمك بالقضاء والقدر.

* * *

رجع المأمون إلى العراق سنة ٢٠٤ بعد سنوات ستة من انتصاره على أخيه، وكان قد هر بأهل بيته وبالثائرين العلويين فدخل عاصمته وهي توجس خفية منه: فهو منهم من الأمة بأنه فرط في حق أخيه فقتلته جيوشه، متهم من الفرس مذ هجرهم في مرو إلى عاصمة الخلافة، متهم منهم مذ قتل الفضل بن سهل كما قتل جده أبا مسلم، متهم من الشيعة بأنه سم إمامهم بعد إذ ولاه عهده، متهم من أهل بيته بأنه لا يبتغي بقاء الدولة فيهم وأنه يؤثر عليهم أبناء علي، ومنهم صهره محمد الجواد ما تزال به حياة.

وأخيرًا.. فهذا المتهم من كل وجه يتهم نفسه – تهمة مضاعفة – ويعلنها! وستظهر آثارها في كل تاريخه: إنه يخفى عن الأمة مخالفته لها في أمر من أمور عقيدتها وإنه يخافها من جراء خلافه معها.. يقول: "لولا مكان يزيد بن هارون لأعلنت القول بخلق القرآن.. (حتى) لا يرد علي... وتكون فتنة".

لكنه باقتداره المقطوع القرين على المناورة يسبح بسفينة الخلافة سبح الربانية في زوبعة – ومعه الذئب والحمل – فيقذف بالحمل، أي بالعرب، في اليم، لينجو بنفسه والذئب أي بالعجم، كي يأكله الذئب فيما بعد، أو يأكل الذين جاءوا بعده..

ولعله مما يعالج في دخيلة نفسه، كان يطأ الثري مترفقًا من حذره، ويختار الوقت المناسب لمعالنة الناس ببدعة. ولعل ضيق ذرعه بحذره من المحدثين والفقهاء كان يتفقأ في سورات غضبه غير المنتظرة!

أما أحمد بن أبي داؤد بنقائصه فسنراه بعد إلى جوار المعتصم.

وأما ثمامة بن أشرس (٢١٣) الذي علم المأمون الاعتزال بمرو، فكان مشهورًا، بالمجون خليع النفس سخيف الدين حتى ليسجنه الرشيد سنة ١٨٦ ثم يطلقه. لكنه كان جيد الفكاهة بليغ العبارة، وكان يسكر علانية، لقبه المأمون بعد المغرب مرة والزعيم المعتزلي سكران خارج داره. فقال له الخليفة: "أتعرفني"؟ قال: أي والله. قال المأمون: فمن أنا؟ قال لا أدري. فضحك أمير المؤمنين حتى كاد يسقط عن دابته! وكان مع ذلك زين مجالسه! يشير عليه بالوزراء[١٤١] ويرفض الوزارة، ويزين له لعن معاوية وعمرو. ويحرضه على القول بخلق القرآن.

وكان إبراهيم النظام (٢٢١) زعيم بلاغة وجدل، لكن المحدثين مطبقون على فسوقه. وقد فتن المعتزلة بنبوغه في العلوم الطبيعية والفلسفة والآداب... هجر المأمون عربيًا جاريته ثم اعتلت فعادها فسألها كيف وجدت طعم الهجر؟ فأجابت لولا مرارة الهجر ما عرفت طعم الوصل ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا. فخرج المأمون فقص القصة على جلسائه وأضاف قائلاً: أترى هذا لو كان من كلام النظام ألم يكن كبيرًا؟ ويؤثر عنه أقوال مربية من الشعر والنثر والتشبيب بالغلمان، وكان سكيرًا يعاقر الخمر، ويمارس الأدب المكشوف، في دولة دينية، مكانته عند خليفتها معروفة [١٤٢].

---

(١٤١) قال أحمد بن خالد وزير المأمون لثمامة: كل واحد في هذه الدار – دار الخلافة – له معنى إلا أنت لا معنى لك. فتدخل المأمون بين الرجلين قال: إن له لمعنى في الدار والحاجة إلى بينة: أشاوره في مثلك هل تصلح أو لا تصلح.

(١٤٢) وتؤثر عنه نصوص أدبية منها المريب ومنها ما يمكن نشره مثل:

ما زلت آخذ روح الزق في لطف وأستبيح دمًا من غير مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسدي وألزق مطرح جسمًا بلا روح

وقوله:

وهو القائل إن القرآن معجز لأن الله صرف الناس عن معارضته، وهو رأي قد ينتهي إلى نفي الإعجاز.

عاب الصحابة. ورمى ابن مسعود – رضي الله عنه – بالكذب.. وابن مسعود شيخ مدرستي الحديث والرأي بالعراق، وسادس ستة أسلموا، وعاب حذيفة بن اليمان، ونقد أبا بكر لأنه قال برأيه في مسألة وتحرج عن إبداء الرأي في أخرى.

وهو الذي رفس حسين النجار وهما يتجادلان في القضاء والقدر فحم حسين النجار فمات – وتلميذه الجاحظ نفسه يقول عن طريقة جدله: "يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدأ أمره كان ظنًا".

أما الجاحظ فهو من الكتاب العالميين. وقدرته البلاغية فوق النقد. لكن سيرته – وهي المؤهل الأساسي لكل من يتصدى للكلام في أمر ديني – هدف ينجذب إليه الناقدون من كل صوب:

ابن قتيبة الذي يصفه ابن تيمية بأنه "حجة الأدب المنتصب للدفاع عن الحديث" يقول فيه: "أكذب واحد في الأمة" وأنه: "يبلغ به الاقتدار أن يعمل الشيء ونقيضه، وتجده مرة يحتج للعثمانية (أنصار عثمان) على الرافضية (الشيعة) ومرة للزيدية (من الشيعية) على العثمانية وأهل السنة ومرة يفضل عليًا رضي الله عنه. ومرة يؤخره" وأنه: "يقصد للمضاحك والعبث يريد استمالة الصبيان".

وثعلب إمام اللغة يقول فيه: "ليس بثقة ولا مأمون". ويقول فيه: "كان كذابًا".

وأبو الفرج الأصفهاني يقول فيه: "وكان يرمي بالزندقة".

وأبو منصور البغدادي يستكثر عليه أن يكون إنسانًا.

رق فلـــو بـــزت ســـراويله علقـــه الجـــو مـــن اللطـــف
يجرحـــه اللفـــظ بتكـــراره ويشـــتكي الإيمـــاء بـــالطرف

وابن أبي الدنيا وابن الذيال المحدثان كانا في وليمة حضرها الجاحظ، وحضرت صلاة الظهر وصلى الناس وما صلى الجاحظ، وحضرت صلاة العصر وما صلى الجاحظ، فلما عزموا الانصراف قال الجاحظ لرب المنزل: إني ما صليت لمذهب أو لسبب فقال رب المنزل: ما أظن لك مذهبًا في الصلاة إلا تركها.

وابن أبي داؤد زميله في الاعتزال وحاميه يقول فيه:: "إني أثق بظرفه لا بدينه".

الحق أن الجاحظ كان في عصره يقف في طليعة رجال قلائل ينطبق عليهم التعبير العصري: رجل يصلح لكل الفصول أو لكل الأحجام.. كتب في ذم النبيذ ثم كتب في مدحه، وكتب في صناعة القيان وفي إعجاز القرآن، وقدح في الصحابة، ولما كان المأمون بخراسان طلب إلى العلماء أن يكتبوا له في موضوع الإمام فكتب له الجاحظ وبعث إليه كتاب (وجوب الإمامة) فقربه. ولما أمر المأمون بلعن معاوية كتب له كتاب إمامة معاوية [١٤٣]، ولما امتحن المأمون العلماء بخلق القرآن كتب له كتاب خلق القرآن. وكتب في الراوندية تماجنًا مع أنه لم يكن من نحلتهم، ومن كثرة ما سخر حتى من نفسه. وقذف في كل هدف اعترضه حتى ليكفر أجيالاً بأسرها. ونقد المحدثين – وفيهم أحمد – بعنف شديد، وكان ينتقل مع الظل، من ظل المأمون بعد إذ مات وهو إل جواره في البدندون ينتظر احمد بن حنبل – والسيف في يد المأمون – إلى ظل محمد بن عبد الملك الزيات، إلى ظل غريمه محمد بن أحمد بن أبي داؤد!

ولم يكن من مصلحة الدولة ولا أفكار المعتزلة أن تذيع في الأمة وثاقة العلاقة بين الخلفاء وبين هؤلاء المعتزلة وإن كانوا علماء أو أدباء. وكان من نكد الطالع للخليفة الفيلسوف أن ينشر شراعه في البحار العالية للجدل الديني، وحوله فريق مشهور من المجروحين لا يصحون لرواية حديث واحد. وأولى ألا تقبل منهم الأمة في القرآن كلمة.ولكم تأثر مضمون بشكله وأساء قائل إلى قوله!

هكذا بدأ المأمون معركته مع المحدثين وفي جواره رجال يعتبر الانتصار بهم هزيمة.

---

(١٤٣) يقول عن معاوية صهر النبي وكاتبه وواحد من الكبار: (على أن كثيرًا من أهذ ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقالوا لا تسبوه لأن له صحبة وسب معاوية بدعة. ومن يبغضه فقد خالف السنة).

ويقول عن عمرو بن العاص فاتح مصر رضي الله عنه إنه (من أجل ما عرف من أموالها لا يستعظم أن يحملها ثمنًا من دينه).

obeikandl.com

الفصل الثاني

بين الامتحان والمحنة

"غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القوة

لأن غلبة القوة تزول بزوالها أما غلبة

الحجة فلا يزيلها شيء"

المأمون

- الخطاب أو الاستجواب الثالث
- الخطاب أو الاستجواب الرابع
- الممتحن في أصفاده
- قاضي القضاة الجديد
- مع المعتصم
- ظهور النتيجة
- بعد الامتحان

obeikandl.com

تتابعت على المأمون في السنوات الأخيرة مهاب الخطر من الداخل والخارج. ففي سنة ٢١٥ ثار العرب بمصر. وفي سنة ٢١٦ انضم الأقباط إلى الثوار فجرد إليهم جيشًا بقيادة "الأفشين". وفي جمادي من العام ذاته قاد الخليفة جيوشه تلقاء طرسوس لملاقاة الروم، فأقام منتصف شعبان ومن ثم وجه إليهم جيشًا بقيادة أخيه المعتصم وآخر بقيادة قاضيه يحيى بن أكثم.

ودخلت سنة ٢١٧ وهو في دمشق، ليسير منها إلى مصر في المحرم فيبقى بها تسعة وأربعين يومًا يعيد فيها السكينة إلى ربوع البلاد (١٤٤)، ثم عاد ليقود الجيوش بين قفار الصحاري وهضبات أسيا لا يهدأ ولا يهنأ.

ثم دخلت سنة ٢١٨ وهو بميدان القتال بالشام. لكن المعارك الضارية مع الإمبراطورية الرومانية لا تصرف المعتزلي الكبير – والمعتزلة يحيطون به – عن أن يخوض واحدة من معاركهم لتصير أخطر معارك حياته.. وكأنما كان يدرك أنه لم يبق له في الحياة إلا أسابيع، وأن فرصته لفرض فكر المعتزلة على أهل السنة قد تفوقه في حياته! فراح يتدارك فرطاته. بالكتب يرسلها، من بعيد، بالبريد المستعجل، المتتابع، وكأنها كتائب تتلاحق، وهو شاهر سيفه في انتظار رؤوس المخالفين!

كان قد تخلص من قاضي قضاته يحيى بن أكثم سنة ٢١٧، وعين أحمد بن أبي داؤد بدله. فجعل "مسألة خلق القرآن" مسألة دولة. وموضوعًا لامتحان فأرسل إلى ولاته بالأقاليم. وفي طليعتهم كيدر في مصر. ونائبه ببغداد اسحق بن إبراهيم (٢٣٥). وهو ابن عم طاهر بن الحسين، فارسي الأصل خزاعي بالولاء، ليجمع من بحضرته من القضاة ويمتحنهم ويكشفهم عما يعتقدون في خلق القرآن ويعلمهم أنه غير مستعين في عمله إلا بمن خلص "توحيده" ويقينه، فإذا أقروا أمروا بأن يصنعوا ذلك الصنيع في الشهود وأن يتركوا إثبات شهادة من لا يقر بأن القرآن مخلوق، وطلب موافاته بما يتم في امتحانهم.

---

(١٤٤) لم تفارق المأمون سجاياه في ميدان حربه. استضافته قبطية في دلتا النيل (قرية طنامل) يقمع الثوار فنزل عليها بجيشه – وفي الصباح بعثت إليه عشر وصيفات، مع كل وصيفة طبق وفي كل طبق كيس من ذهب، فشكر لها وأعاد الهدايا.. قالت يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا. قال إن في بعض ما فعلت كفاية فردى مالك بارك الله فيك، فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين هذا – وأشارت إلى الذهب – من هذا – وأشارت إلى قطعة الطين – ثم من عدلك يا أمير المؤمنين. وعندي من هذا شيء كثير. فأخذه وكافأها عدة ضياع وأعفاها من بعض الخراج.

هذا الامتحان الذي يعبر عنه بالمحنة بمعنى اختبار الأفكار، صيره التاريخ محنة بمعنى الكوارث التي أحدثتها.

أورد الخليفة حجة فقال فيما قال: "أما بعد فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في دين الله. والعمل بالحق في رعيتهم – وقد علم أمير المؤمنين أن الجمهور والسواد الأعظم من حشو الرعية وسلفه العامة ممن لا نظر له ولا رؤية ولا استدلال له بدلالة الله وهدياته ولا استضاء بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه.. وذلك أنهم سووا بين الله تعالى وما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول، لم يخلقه الله ولم يحدثه، ويخترعه – وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه: ﴿**إِنَّا جعلَنْاهُ قُرآنًا عَربيّا**﴾ فكل ما جعله الله قد خلقه. وقال عز وجل: ﴿... **كَذلِكَ نَقُصُ عَليكَ من أنباء ما قَدْ سَبَقَ**﴾ فدل على أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا متقدمًا. وقال: ﴿ **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ وكل محكم مفصل فله محكم مفصل. والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعة. ثم هم الذين جادلوا بالباطل ونسبوا أنفسهم إلى السنة... ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة. فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الدين إلى موافقتهم.. تزينًا بذلك عندهم وتصنعًا للرياسة.. فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة...."

ونرى – بادئ الرأي – في هذا الكتاب: تفسيرًا للقرآن بالقرآن. وصيحات حرب. وقطرات أسى من تصنع الرياسة!

وتتابعت الكتب من مقر القيادة:

فطلب إلى نائب بغداد أن يشخص إليه محمد بن سعد (كاتب الواقدي) وأبا مسلم مستملي يزيد بن هارون ويحيى بن معين وأبا خيثمة زهير بن حرب (٢٤٤) صديقي أحمد وإسماعيل بن أبي مسعود وحامد بن الدورقي (٢٤٦) فأشخصوا إليه فامتحنهم. فأجابوا جميعًا أن القرآن مخلوق. فأعيدوا إلى بغداد. وشهر أمرهم وقولهم. وأقروا بحضرة الفقهاء والمشايخ وأهل الحديث بمثل ما أجابوا به المأمون.

الخطاب أو الاستجواب الثالث:

ولعل اختيار هؤلاء كان ولدي كلام أسرته عيون المأمون في كبهم إليه – والمؤكد أن إقرار يحيى بن معين وأبا خيثمة، مع علمهما وورعهما، بغير عناء، يطمع في إقرار سائر العلماء، وقد يتلو ذلك إقرار أحمد! وسؤال أحمد بعد هؤلاء دلالة على الترتيب والتعقيب. فقفى القائد من الميدان بخطاب ثالث، يمكن إجمال الفحوى منه فيما اختتم به عمن يمثلون للشهادة أمام القضاء مهما كانوا صادقين شرفاء:

"فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلا شهادته ولم يقطعا حكمًا بقوله وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره. وافعل ذلك بمن في عملك.. واكتب إلى أمير المؤمنين...".

ويروي الطبري تنفيذ اسحق لذلك الكتاب فيما يقول: (فاحضر اسحق ابن إبراهيم جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين: أبا حسان الزيادي وبشر بن الوليد الكندي – وعلي بن أبي مقاتل والفضل بن غانم والذيال بن الهيثم وأحمد بن حنبل وأبا نصر التمار وأبا معمر القطيعي وابن الفرخان ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد ابن نوح المضروب وعبد الرحمن بن إسحق وأحمد بن شجاع وسعدويه الواسطي وأبا العوام البزار والقواريري وعاصم بن علي بن عاصم ويحيى بن عبد الرحمن العمري وجماعة منهم النضر بن شميل – فقرأ عليهم خطاب أمير المؤمنين، هذا، مرتين حتى فهموه.

ثم سأل بشر بن الوليد فأجاب: قد عرفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة.. القرآن كلام الله. قال اسحاق: أمخلوق هو؟ قال: الله خالق كل شيء. قال اسحق: أليس القرآن بشيء؟ قال هو شيء: قال إسحق فمخلوق؟ فقال ليس بخالق – قال إسحق ليس أسألك عن هذا. قال: لا أحسن غير ما قلت وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت. فأخذ اسحق ورقة كانت بيده فقرأها عليه ووقفه عليها فقال: "أشهد إلا الله إلا الله أحدًا فردًا – لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه" فقال للكاتب اكتب ما قال.

ودعى علي بن أبي مقاتل فقال فيما قال... هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سعنا وأطعنا. قال للكاتب: اكتب ما قاله ومثل على قال الذيال ابن الهيثم.

وقرأ الرقعة علي أبي حسان الزيادي. فقال: القرآن كلام الله والله خالق كل شيء وما دون الله مخلوق وأمير المؤمنين إمامنا، وبسببه سمعنا عامة العلم، قد سمع ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم، وقلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدي إليه زكاة أموالنا ونجاهد معه، ونرى إمامته أمامة. وإن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا وإن دعانا أجبنا.

قال اسحق: القرآن مخلوق هو؟ فأعاد أبو حسان ما قال. قال اسحق: إن هذه مقالة أمير المؤمنين. قال أبو حسان قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها، وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك بأن أقول قلت ما أمرتني به فإنك الثقة المأمون عليه فيما أخبرتني من شيء.. فإن أبلغتني عن شيء صرت إليه.

قال ما أمرني أن أبلغك شيئًا.

وتدخل علي بن أبي مقاتل فقال: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها – قال أبو حسان ما عندي إلا السمع والطاعة فمرني آتمر.

قال اسحق: ما أمرني أ، آمرك. أمرني أن أمتحنك...

وجاء دور أحمد بن حنبل...

أترى أحمد يدارأ في الصيغ كما أدارأ هؤلاء؟ أو يستعمل التقية أو المعاريض أو التورية؟ أم أنه لا يقدر على الانحناء، لكمال إخلاصه الذي يتساوى فيه ظاهره وباطنة، وفقهه الذي يحاسبعلى النية، وزهده الصادق في استعمال الرخصة. وإنه لصدوق في عدم استعمالها في أمر متعلق بالعقيدة؟

والدفاع عن الرأي أول واجب على صاحب الرأي. والإسلام من فرائضه، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن أسسه حرية الفكر والقول، واستعمالها واجب على كل مسلم – وهو أوجب على الإمام.

وسنستمع إلى أحمد، بعد، يشير إلى ما في موقف الإباء من مصلحة للأمة وحكمة في دفع الخطر. فيقول في الذين أجابوا تقية: "لو كانوا صبروا وقاموا لله لكان انقطع الأمر وخافهم الرجل. ولكن لما أجابوا وهم عين البلد اجترأ على غيرهم".

قال إسحق لأحمد: ما تقول في القرآن؟ قال هو كلام الله.

قال إسحق: أمخلوق هو؟ قال أحمد: هو كلام الله لا أزيد عليها.

ثم امتحنه في الرقعة فلما انتهى إسحق إلى قوله: ﴿**ليس كَمثْلِهِ شَئٌ وُهَو السَّميعُ البَصيرُ**﴾ – وأمسك عن عبارة لا يشبهه بشيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه – اعترض عليه ابن البكاء الأصغر فقال: أصلحت الله إنه يقول سميع من أذن، بصير من عين، فقال اسحق لابن حنبل ما معنى قوله: سميع بصير؟

قال أحمد: هو كما وصف نفسه.

قال إسحاق: ما معناه؟

قال أحمد: لا أدري هو كما وصف نفسه.

ثم دعا بهم رجلاً رجلاً كلهم يقول: "القرآن كلام الله" إلا هؤلاء النفر قتيبة وعبيد الله بن محمد بن الحسن وابن علية الأكبر وبان البكاء وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن منبه والمظفر بن مرجي ورجلاً ضريرًا ليس من أهل الفقه ولا يعرف بشيء إلا أنه دس في ذلك الموضع ورجلاً من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة وابن الأحمر...

وابن البكاء الأكبر قال: القرآن مجعول لقوله تعالى: ﴿**إنَّا جعلنَاهُ قُرآنًا عربيًّا**﴾ والقرآن محدث لقوله: "ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث" قال إسحق: فالمجعول مخلوق؟ قال نعم. قال إسحق فالقرآن مخلوق؟ قال: لا أقول مخلوق ولكن مجعول (١٤٥) فكتب مقالته.

---

(١٤٥) يقول المحدثون: الجعل يستعمل في اللغة وفي القرآن بمعنى الفعل وبمعنى التسمية وسيفحم أحمد اسحق ابن إبراهيم وأحمد سجين عنده إذ قال له إسحق: أفيكون مجعولاً إلا مخلوقًا؟ ويجيبه على طريقته من تفسير القرآن بالقرآن: قال تعالى: (فجعلهم كعصف مأكول) أخلقهم؟ فلا يجير إسحق نطقًا.

الخطاب أو الاستجواب الرابع:

أرسل البريد بما كان. فمكث القوم تسعة أيام – وإذا دمدمة الميدان تنزل رجومًا على بغداد بكتاب شهير في تاريخ الخليفة الفيلسوف. يطلب فيه رقاب البعض ويطلب إشخاص البعض ليطيح سيفه – هو – برقابهم! كأنه لم يكن في حرب وكأن هذه هي الحرب!

كان المأمون كآبائه يعس في الليل والنهار – ويتجسس الأخبار ويهتم بالرأي العام ويسأل خلصاءه ما تقول العامة؟ وكانت لديه معلومات من كل الجهات. إذ وجد منها ما لا يتأدى إليه على الصحة لفت نظره مصدره كمثل إبراهيم السندي المسئول عن أخبار بغداد يقول له يومًا: "لا ترفع عليّ الكذب وتحملني على عمالي" فيقول إبراهيم: لو كانت الأخبار لا تصح إلا بشاهدي عدل ما صح خبر.

ومع أن المأمون لم يك تياهًا ولم يك يفسح للمشائين صدره ويقول لواحد من عماله: "إن قبول السعاية شر من السعاية فإن السعايدة دلالة والقبول لإجازة وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازه" فلقد كان أتيه الناس بانكشاف دخائل خاصته له! حدث عمه إبراهيم أنه قال يومًا: هاتوا من عسكرنا من يطلب من عندنا بالرياء. فآتاه كل واحد ما عنده... حتى إذا فرغوا أنشأ الخليفة يقول: ما أدرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتي.. واستطرد يتحدث عن علم لو أقام في رجل كل واحد منهم حولاً ما زاد على معرفته.. تسبيح حميد الطوسي. وصلاة قحطبة. وصيام النوشجاني. ووضوء المريسي. وبناء مالك بن شاهي للمساجد. وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر.. حتى عددنا جماعة كبيرة". قال رجل: هل رايت وسمعت قط بملك أعلم برعيته أو أشد تنقيرًا من هذا! قال إبراهيم مؤيدًا: قلت شهدت رسالته إلى اسحق ابن إبراهيم في الفقهاء يخبر بمعايبهم حتى لهو أعلم بما منهم في منازلهم..

وهذه الرسالة المشهود لها في العلم بالدخائل، مشهود لها في سلق الناس بالألسنة الحداد. وفيها يزداد المأمون تجرمًا على المحدثين فيقول: "بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد – فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك، جواب كتابه، كان إليك فما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة ومتلمسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل.

فأما ما قال به بشر بن الوليد... فقد كذب بشر وكفر.. فادع به.. فإن تاب فاشهره أمره وأمسك عنه. وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقًا فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله.

وكذلك إبراهيم بن المهدي – وقد بلغت أمير المؤمنين بوالغ – فإن قال إن القرآن مخلوق فاشهر أمره واكشفه وإلا فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه. إن شاء الله.

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له ألست القائل لأمير المؤمنين: إنك تحلل وتحرم؟ والمكلم له ما كلمته به مما لم يغب عنه ذكره؟

وأما الذيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله.

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام.. فاعلمه أنه صبي في عقله لا في سنه، جاهل، وأنه إن كان لا يحسن القول في القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه – فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فجرى تلك المقالة وسبيله فيها واستدل على جهله وآفته بها.

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أن أمير المؤمنين لم يخف عليه ما كان منه بمصر وما اكتسب فيها من الأموال في أقل من سنة وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك فإنه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعًا فيهما.

وما الزيادي فأعلمه أنه كان منتحلاً لأول دعى في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله ﷺ – وكان جديرًا أن يسلك مسلكه فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد. أو يكون مولى لأحد من الناس. وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور.

وأما المعروف بأبي نصر التمار (عبد الملك بن عبد العزيز) فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقلة بخساسة متجره.

وأما الفضل بن الفرحان فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحق وغيره تربصًا بمن استودعه – فقل لعبد الرحمن بن إسحق لا جزاك الله خيرًا على تقويتك مثل هذا.

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبي معمر فأعلمهم أنهم مشاغلي بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد. وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم إلا لإربائهم لاستحل ذلك – فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركًا! وصاروا للنصارى مثلاً.

وأما أحمد بن شجاع لأعلمه أنك صاحبه بالأمس – والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحله من علي بن هشام وأنه مَن الدينار والدرهم دينه.

وأما سعدويه الواسطي فقل له: قبح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث والتزين له والحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول ليتقرب منها: متى يمتحن فيجلس للحديث؟

وأما المعروف بسجادة وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى وحكه لإصلاح سجادته وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره، ما أذهله عن التوحيد وألهاه. ثم سله عما كان أبو يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما [١٤٦].

---

(١٤٦) كان كثير من المعتزلة ومنهم المأمون يتفقهون على مذهب أبي حنيفة وأصحابه وقد تلقى بشر المريسي الفقه على أبي يوسف فلما أظهر بشر القول بخلق القآن هجره أبو يوسف وهم بالتنكيل به لولا فراره إلى البصرة واختفاؤه في حياة الرشيد. قال له أبو يوسف في مناقشة: لا تنتهي حتى تصعد خشبة – أي تصلب. ولما قضى بشر نحبه (٢١٨) كان الأحداث يتصايحون أمام جنازته (من يكتب إلى مالك) يقصدون على باب جهنم.

ولما جرح المحدثون من قال بخلق القرآن ومنهم بعض الفقهاء الحنفية حمى الوطيس بين الفقهاء أنفسهم فوق ما كان بينهم وبين المتكلمين.

والحنفية لا ذنب لهم إذا كان منهم المعتزلة ومن هؤلاء فحول وفضلاء. وليم يسلم أبو يوسف ومحمد بن انلإمام الأعظم أبو حنيفة من أذى المتخاصمين. والثلاثة لم يقولوا بخلق القرآن وكانوا ضد القدرية. فقالوا

وأما القواريري ففيم تكشف من أحواله وقبوله الرشى والمصانعات ما أبان عن مذهبه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فجوابه معروف.

وأما ابن علي بن عاصم فإنه... بعد صبي يحتاج إلى تعليم وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبي مسهر بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن فجمجم عنها ولحلج فيها حتى دعا أمير المؤمنين بالسيف فأقر ذميمًا فانصصه عن إقراره وأظهره إن شاء الله..." (١٤٧).

ويختتم الخليفة خطابه الشهير بقوله: "ومن لم يرجع عن شركه ممن سميته لأمير المؤمنين في كتابك وذكره أمير المؤمنين لك في كتابه هذا – ولم يقل إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد. وإبراهيم بن المهدي. فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين لينصبهم أمير المؤمنين فإن لم يرجعوا وينوبوا حملهم على السيف.

وقد أنفذ أمير المؤمنين خطابه هذا في خريطة بندارية، ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية، معجلاً به، تقربًا إلى الله عز وجل".

هكذا كانت العجلة التي تنطق بالحنق، وتورث الفزع، والكلم الذي يملأ الفم، من خليفة يقول: الشم عي والبذاءة لؤم. فدل أسلوبه على خروجه من طوره. ومع ذلك لا يجد في أحمد ما يقوله إلا نفثات الغضب، وربما مل قلم الخليفة من مداد الجاحظ أو ابن أبي داؤد – وكانا في حاشيته – وابن أبي داؤد هو آخر من شغل فكره في ساعاته الأخيرة، حتى ليوصي به الخليفة الجديد كالقيد الذي تنتقل به الخلافة الجديدة.

بالقدر خيره وشره. بل لعن أبو حنيفة جهم بن صفوان، وقال محمد بما سيأخذ به أحخمد بعده (من صلى خلف معتزلي يعيد صلاته) وأبو يوسف يسأل عن المعتزلة فيجيب: (هم الزنادقة).

(١٤٧) عبد الأعلى بن مسهر أبو مسهر الغساني الدمشقي (١٤٠ – ٢١٨) لم تجل دمشق أحدًا في عصره إجلالها له – روى عنه يحيى بن معين وآخرون.

قال المأمون وهو يصرفه: "أما إنك لو قلت (بالخلق) قبل أن أدعو بالسيف لقبلت منك ورددتك إلى بلادك وأهلك ولكنك تخرج الآن وتقول: قلت ذلك فرقًا من القتل.. أشخصوه إلى بغداد فاحبسوه حتى يموت". فأشخص من الرقة إلى بغداد في ربيع الآخر سنة ٢١٨ فأكرمه الله فلم يلبث في الحبس إلا يسيرًا حتى مات في غرة رجب.. ليلحق به المأمون بعد بضعة عشر يومًا..

الممتحن في أصفاده:

أدرك أئمة المحدثين أن الخليفة قد أجمع أمره. وكثيرون منهم أولو خبرة بسورات غضبه، في غرفات قصره أو في مجالس أدبه، فكيف بها في ميادين حربه! فبادر بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي فأقرا. فالأول قاضيه والثاني عمه وله معه شئون وشجون [١٤٨] واستيقن الباقون من تفويض المأمون إلى نائبه قطع رأسي هذين، بالذات، وبمجرد امتناعهما عن الإقرار، ودون رجوع نائبه إليه، ومن عرض أبي مسهر على السيف أنهم لا جرم معروضون على سيف قائد كافر الغضب في ميدان حرب. فأقروا في الوهلة الأولى فسرحوا الا سجادة والقواريري أقرا في الغداة فأطلقا من حبسهما.

أما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح بن ميمون فأبيا...

وظاهر من كتاب المأمون أن إسحق كتب له كلامًا خاصًا بأحمد فلعله ذكره أنه المحدث الوحيد الذي لا ينال من جراية الخلفاء على العلماء زهدًا فيها لا مغاضبة لهم.

أو لعله لفت نظره إلى أنه أبعد الناس عن تصنع الرياسة مع مكانته في قلوب الأمة. أو إلى إخلاصه الصادق في طاعة ولي الأمر، أو سمو نفسه عن التكلف وطلب الدنيا، أو لعله نبهه على ا،هـ إن لم يجب تقية كالآخرين فقد كان يصدر عن منهج علمي لديه. بل لعله نقل الصورة التي شهدها منه وهو يمتحن. وهي الصورة التي نقلها للأجيال اللاحقة أبو معمر القطيعي فقال: "كان أبو عبد الله أحمد بن حنبل قد أحضر، وكان رجلاً لينًا، فلما رأى الناس يجيبون انتفخت أوداجه واحمرت عيناه وذهب ذلك اللين الذي كان فيه. فقلت إنه غضب لله فلما رأيت ذلك قلت: يا أبا عبد الله أبشر".

وقديمًا كان من أصحاب رسول الله ﷺ من إذا أريد على شيء من دينه رأيت حماليق عينه في رأسه تدور كأنه مجنون!

---

(١٤٨) مر بنا في هذا الباب بعض ما كان بين المأمون وبشر بن الوليد. أما عمه إبراهيم فسبق أن عفا المأمون عنه إذ بايعه ثوار بني العباس فصار خليفة في بغداد لمدة عامين، فلما قدر عليه المأمون صيره من أخلائه في حين لم يعف عن ابن عائشة وهو من صميم أهله (إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام الأخ الأكبر لأبي جعفر المنصور جد ا لمأمون) فقتلته إذ تزعم الثورة عليه.

ولعل المأمون لذلك رد على نائبه فقال إنه عرف "فحوى" مقالة أحمد "وسبيله" فيها مما يشير إلى مقال علمي وسبيل منهجي ومع ذلك لم يسلم من رذاذ الكتاب الشهير.

وبعث نائب بغداد أن الذين أجابوا تأولوا أنهم أجابوا مكرهين. فلم يترك المأمون هذا الخطاب دون جواب. يريد لتكون له الكلمة الأخيرة في العلم. وأن يكون العلماء شرعًا في الامتثال للقرار الذي يقرره في الدين. فجعل – بخطاب خامس – يناقش دعوى الإكراه ويأمر بإشخاص العلماء الأباة إليه في الميدان.

ولقد يكون في وجود الجاحظ أو ابن أبي داؤد إلى جواره في البدندون دلالة على أن المأمون كان يعتزم مواجهة أحمد – كإمام أهل السنة – وشيخ المعتزلة يشد أزر الخليفة، مما يشير إلى أن سيف المأمون كانت ستسبقه مناظرة.

* * *

أشخص أحمد وبان نوح مقيدين زميلين على بعير واحد إلى طرسوس: قيل لأحمد ألا ترى الباطل كيف ظهر على الحق.. قال: "كلا إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة وقلوبنا، بعد، لازمة للحق".

أجل. وإنه ليفهم الأمر فهم الأئمة: أن ترخص للإمام في مقام الامتحان هزيمة. وهو يعالن الملأ بنيته لأنه يحاسب نفسه، كما يحاسب غيره، على النية. وليست النجاة غرضه وإنما إعلاء كلمة السنة غاية الغايات من زهده وتحديثه وفقهه مجتمعة أو متفرقة. وبهذا الإدراك الكامل سار إلى طرسوس. لقد قدم راحة جسده قرابين للزهد والتحديث وتفقيه المسلمين يومًا يومًا وعلى مدار أعوام خمسين. وليس تقديم روحه من أجل عقيدته أشق مما سبق. فإنها ضربة بالسيف واحدة. لكن بقاء السنة رافعة أعلامها هو طريق الخلود في الجنة.

وانطلقا فكانت تجيئهما في كل مرحلة من مراحل الطريق رسالة تفرغ عليهما صبرًا: جاءه في الأنبار أبو بكر الأحول يشد أزره فسأله: إن عرضت على السيف تجيب؟ قال لا.

وانطلقا.. حتى إذا بلغا رحبة طوق – يقول أحمد: "عرض لي رجل فسلم علي ثم قال: يا هذا. ما عليك. أن تقتل ها هنا وتدخل الجنة؟ ثم سلم وانصرف فقلت من هذا؟ قيل جابر بن عامر الشاعر بالبادية".

ولقد طالما ردد الإمام بعد أعوام: ما سمعت منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي في رحبة طوق. قال لي: إن يقتلك الحق مت شهيدًا، وإن عشت عشت حميدًا: فقوى قلبي.

وانطلقا.. فعبر الفرات إليهما في الطريق أبو جعفر الأنباري فلقيهما في الخان.

قال له أحمد: يا أبا جعفر تعنيت؟

قال: "ليس هذا عناء. أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت. ولا بد من الموت. فاتق الله ولا تجبهم بشيء".

وتهللت دموع الورع. فجعل أحمد يقول: "ما شاء الله ما شاء الله" ثم قال: يا أبا جعفر أعد علي ما قلت فأعاد. فجعل أحمد يقول: "ما شاء الله ما شاء الله".

كان جابر يقول له: مت ها هنا في رحبة طوق لتدخل الجنة – وهذا أبو جعفر يقول له مت هنالك في طرسوس كيلا يهلك الناس. ولكنه سيحيا بعد رحلة الموت ويحيا الناس. وصدق أبو بكر رضي الله عنه نصحه لقائده خالد: احرص على الموت توهب لك الحياة.

وانطلقا.. يجران أقيادهما حتى دخلا يوم ١٨ من رجب سنة ٢١٨ بعد هوى من الليل "أذنة" – (تركيا الحالية) في الطريق إلى طرسوس.

ولأحمد علم بالطريق وبالثغر فهو من المرابطين القدماء فيه. أما الطريق فقد قطعها من قبل يطلب العلم وهو اليوم يجر فيها أصفاده، ويلتمس الشهادة، ليعلم المسلمين أعظم درس في الدين.

ولم يكن في آذان العالم أو أذهانه في تلك الحقبة إلا الأسماء الثلاثة المأمون – وابن حنبل – وابن نوح – والأخيران يحشران إلى الأول وهو شارع سيفه. العالم العلمي يحبس أنفاسه في انتظار أخبار المذبحة.. فما هذان إلا رأسان يسقطان بين مئات الآلاف التي تتهاوى في أرض الميدان.. لكن يد الله كانت هنالك تسقط السيف من يد المأمون وتقبض روحه.. لا في المعركة ولكن بالموت الطبيعي لتتم الموعظة في شأنه.

وإنما مات حامل السيف، بين الخصماء الثلاثة، لأنه هو الذي تحدى الآخرين بسيف القدرة.. والله أعلى وأقدر.

في رحلة الموت هذه وقعت الموعظة الأخرى في الإياب كمثل لموعظة الأولى في الذهاب.. لقد مات محمد بن نوح في أصفاده وهو في عنفوان شبابه. أما الشيخ الذي هزل الزهد جسده فقدر على العذاب الذي هدر قدرة الشباب.. ولما بقى أحمد بين الثلاثة في رحلتي الذهاب والإياب كانت السماء تعلن بلغتها الفصحى أن الله معه. وأن لها في الأعوام الطويلة الباقية من حياته قدرًا مقدورًا لمصلحة الإسلام.

يقول أحمد إنه دعا ربه دعوات ثلاثًا استجاب إلى اثنتين منهن هما ألا يجمع بينه وبين المأمون. وألا يرى المتوكل.

ويقول: ولما صرنا إلى أذنه في جوف الليل وفتح لنا بابها فإذا رجل قد دخل وقال (البشرى قد مات الرجل) يقصد المأمون.

وكرا راجعين في الأصفاد ومات محمد في الرقة وصلى عليه أحمد. لكنه لم يتركه دون وصية جديدة هي وصية شهيد على أبواب الجنة "يا أبا عبد الله – الله الله – إنك لست مثلي – أنت رجل يقتدى به وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك فاتق الله واثبت لأمر الله".

ولم تبرح ذاكرة أحمد صورة محمد بن نوح. وكان جارًا له. فكان يقول عنه: "ما رأيت أحدًا على حداثة سنه وقلة علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح". وحب ابن نوح من المكانة في العلم أن يكون هو درسًا في الإسلام يقصر دونه كثيرًا جدًا من العلماء وحسبه حياة أن يموت في جوار أحمد ويعيش ذكره معه بل أن يعيش ذكره مع الشافعي ذاته.

لقد كانت وصيته في فاتحة حكم المعتصم مثبتًا لفؤاد أحمد كمثل وصية الشافعي في فاتحة حكم المأمون إذ توقع الشافعي – بعد انتصار المأمون على الأمين – أن يكون أورع وأعلم من خلفهم بالعراق، هدف الامتحان الأول.

روى البيهقي.. قال الربيع: "بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل فأتيته وقد انفتل من صلاة الفجر فدفعت إليه الكتاب فقال: أقرأته؟ قلت: لا – فأخذه فقرأه فدمعت عيناه. فقلت: ما فيه؟ قال: يذكر أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام.. فقال: أكتب إلى أبي عبد الله بن حنبل وأقرأ عليه مني السلام وقل له إنك ستمتحن وتدعى على القول بخلق القرآن فلا تجبهم برفع الله لك علمًا إلى يوم القيامة. قال الربيع: قلت: حلاوة البشارة. فخلع قميصه الذي على جلده فأعطانيه – فلما رجعت إلى الشافعي أخبرته فقال إني لست أفجعك فيه ولكن بله بالماء وأعطنيه حتى أتبرك به".

* * *

كتب للمأمون بالوفاة النجاة من لقاء كان يشخاه ويعتد له بأعوان. ولم يك يسيرًا على العالم الذي كانه، أن يصيب بصارمه إمام المسلمين، مهما كان حظ الخليفة من شهوة السيطرة. وكثيرًا ما فرضت مظاهر السلطة أو شهوة السيطرة على الملوك ما لا يرضونه.

لقد كرر فيه التاريخ صنيعه بمارك أوريل (١٨٠م) وكان كلاهما فيلسوف دولة، فيه إنسانية وحكمة. فقضى مارك أوريل – كالمأمون – سنواته الأخيرة في ميادين المعارك وقضى عليه قدره أن يحضر بصفته إمبراطور روما مذابح المسيحيين إذ يدعون إلى حلبات الوحوش دعا. تنشب في أجسامهم مخالبها، أو يقذفون في النار تشوي جلودهم في حين يتصايح النظارة من أهل روما جذلين!

ولا تمضي سنون حتى تنتصر المسيحية على الوثنية وتصير روما قلعة المسيحية. كما لا تنقضي أعوام خمسة عشر حتى تصبح سيرة المأمون هي الضحية ويرتفع على أنقاضها تمثال يملأ ضمير العالم لدفاع أحمد بن حنبل عن القرآن والسنة والإسلام وحرية الفكر.

obeikandl.com

قاضي القضاة الجديد:

وصى المأمون أخاه بقوله: "خذة بسيرة أخيك في خلق القرآن". قال: "وأبو عبد الله أحد بن أبي داؤد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك: فإنه موضع ذلك ولا تتخذ بعدي وزيرًا"، فهو قد أوصى بصوية وعينه منفذ الوصية، وأمر الخليفة بإشراكه معه في كل أمر، وأبعد عنه الوزراء.

وكانت خلافة المعتصم ذاتها عطية من المأمون له بعد إذ نحاه أبوهما لقلة تعليمه. أما المأمون فآثره على ابنه. وإن فرض عليه شريكًا له. فصار الشريك قاضيًا للقضاة. وصار المعتصم من قلة علمه ومن وفائه بعهد أخيه، آلة في يد قاضيه.

وصار من حظ المعتصم وبنيه أن تنحصر الخلافة فيهم حتى تزول الدولة بتمامها بعد أربعة قرون ونيف في سنة ٦٥٦ على يد "هولاكو". وكان من حظ ابن أبي داؤد أن يتربع على دست السلطة نحوًا من عشرين عامًا آلت الوظيفة في نهايتها إلى ا لنبه، وأصبح المعتصم من افتتانه به يقول فيه: "هذا والله الذي يتزين بمثله ويبتهج بقربه وبعد به ألوف من بني جنسه..)

كان ابن أبي داود يبني مجدًا لذاته فبدا شديد التعصب للعرب – في دولة ا لفرس والأتراك فيها نفوذ يتعاظم – خلص أبا دلف العجلي من يد الأفشين قائد المعتصم وقد كاد يقتله. وأنقذه حياة خالد بن يزيد بن مزيد من يد المعتصم.

وكان جوادًا بمال السلطان وماله. اعتل يومًا فزاره المعتصم، ونذر إن شفي أن يتصدق بعشرة آلاف دينار. قال ابن أبي داؤد: "اجعلها لأهل الحرمين فقد لقوا عنتًا من غلاء الأسعار" فقال: نويت أن أتصدق بها ها هنا، وأنا أطلق لأهل الحرمين مثلها. ولما فعل للمعتصم كيف تعوده وأنت لا تعود إخوتك وأجلاء أهلك؟ قال: وكيف لا أعود رجلاً ما وقعت عيني عليه قط إلا ساق لي أجرًا وأوجب لي شكرًا، وسألني فائدة تنفعني في ديني ودنياي، وما سألني حاجة لنفسه قط.

ولما ولى الواثق قال لابن أبي داؤد فقد اختلت بيوت الأموال بطلبائك اللائذين بك والمتوسلين إليك. فقال يا أمير المؤمنين نتائج شكرها موصول إليك. وذخائرها أجرها مكتوب لك. ومالي من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بحلو المديح فيك!

وستكرهه بغداد من جراء اعتازله فلما احترقت ضاحيتها (الكرخ) أخذ لأهلها من المعتصم خمسة ملايين درهم وانطلق يؤارب الناس بتفريقها فيهم بيده – فقيل: كانوا قبل ذلك لو

قيل لهم إنه مسلم لقتلوا القائل، فأضحوا يقتلون من يقول كلمة فيه! ولقد صار أبو تمام شاعره كما هو شاعر المعتصم [١٤٩].

وجه المعتصم للخلاص من الأفشين بأسلوبه: أشار أولاً على المعتصم بقسمة الجيش بين الأفشين وهو فارسي له في الجيش الصدارة، وبين أشناس وهو تركي وأم المعتصم تركية: ولما غضب الأفشين كما توقع ابن أبي داؤد قال قاضي القضاة: يا أمير المؤمنين إن أبا جعفر استثار أنصح الناس عنده في أبي مسلم (وكان فارسيًا والجيش في يده) – فكان من جوابه أن قال: إن الله تعالى يقول: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" فقال له المنصور: حسبك – ثم قتل أبا مسلم: قال المعتصم وأنت أيضًا حسبك...

ودارت عجلات الزمن بسرعة وإذا الأفشين يتهم بالزندقة وإذا ابن أبي داؤد نفسه جالس بين القضاة. فأهدر دمه وحبس ومنع عنه الطعام أو سقى السم فمات.

---

(١٤٩) وكان دهيًا يبلغ كل مأربه. يقول عن نفسه: كنت أعيب الغناء وأطعن على أهله فخرج المعتصم يومًا إلى الشماسية في خراقة يشرب – ووجه في طلبي فصرت إليه فلما قربت منه سمعت غناء حيرني وشغلني عن كل شيء فسقط سوطي من يدي فالتفت إلى غلامي أطلب منه سوطه، فقال قد والله سقط سوطي. قلت أي شيء كان سبب سقوطه؟ قال: صوت سمعته شغلني عن كل شيء فسقط سوطي من يدي. فإذا قصته قصني. وكنت أنكر أمر الطرب على الغناء وما يستفز الناس منه ويغلب محل عقولهم وأناظر المعتصم فيه فلما دخلت عليه يومئذ أخبرته بالخبر – فضحك وقال هذا عمي (إبراهيم بن المهدي) كان يغنيني.. فإن ثبت عما كنت عليه من ذم الغناء سألته أن يعيد.. ففعلت وفعل وبلغ في الطرب أكثر ما بلغني عن غيري ورجعت عن رأيي منذ ذلك اليوم.

وكان سخيًا مضى ذات يوم إلى الكلأ فانقطعت شسع نعله فأبدلها له حداد وأبى أن يأخذ لها ثمنًا وهو لا يعرف من هو. وبعد سنوات ظهر الحداد بين أرباب المظالم دون أن يعرف أنه مثل أمام رجل له به عهد فعرفه ابن أبي داؤد وعرف له صنيعه وأعطاه خمسمائة دينار ليصلح بها دنياه كما أصلح نعله.

وكان حلو الندامة اقتحم يومًا على المعتصم مجلس أنسه فأخبره المعتصم أنه أشهد صحبه أنه لا يقضي له اليوم حاجة وطلب حكمه في ألوان طعام كان كل من صحبه قد جاء بصنف منه إلى المائدة فحكم حكمًا أرضى الجميع وحدثهم أحاديث الأكالين من معاوية وسليمان بن عبد الملك إلى معاصريهم في القرن الثالث فلما فرغت الموائد تقدم إلى الخليفة بحوائجه فذكر له ثلاث عشرة مسألة من إنعام بمال عظيم إلى غير ذلك فأجيب إليها جميعًا فشكره وانصرف.

والتفت ا لمعتصم إلى صحبه فقال: (أرأيتم كيف دخل وكيف سلم وكيف كلم وكيف أكل فوصف القدور ثم انبسط في الحديث وكيف طاب أكلنا؟ – ما يرد هذا عن حاجة إلا لئيم الأصل خبيث النوع).

وذات يوم طلب المعتصم إلى أبي داؤد أن ينشب أسنانه في ذراعه ليظهره على قوة تجمله. فراح قاضي القضاة يعض! وكان قد عبر الستين إلى السبعين من العمر! ليقدم بفعله وبفمه دليلاً لم يقدم مثله أحد من قبله أو من بعده على صحة قول الرومان قبل ذلك بقرون عشرة: "ليسوا قضاة ولكن قرود في ثياب قضاة". ثم يمت إلى القرود بسبب جديد هو التعصب فيثبت صدق التصوير الذي صوره فولتير بعد قرون عشرة أخرى لقضاة "كالا" (١٥٠) حيث يقول: "هؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة..".

يقول فيه الحسين بن الضحاك الشاعر لوحد من المعتزلة: "ابن أبي داؤد عندنا لا يعرف اللغة وعندكما لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وعند المعتصم يحسن كل هذا!".

---

(١٥٠) اتهم "كالا" وزوجته بقتل ابنهما خنقًا لاعتزامه الارتداد عن المذهب البروتستنتي إلى المذهب الكاثوليكي. وأدانته محكمة تولوز في ٩ من مارس سنة ١٧٦٢ على أيدي قضاة كاثوليك تحت ضغط التعصب الديني من المتطرفين الكاثوليك. فبرئت الأم ونفذ الحكم في الأب فأعدم. وتصدى فولتير فيلسوف القرن الثامن عشر وطليعة الحرية الفكرية في الثورة الفرنسية لتعصب القضاة فألب الرأي العام الأوروبي عامة والفرنسي خاصة. ونقض الملك الحكم وأمر بإعادة المحاكمة أمام محكمة باريس فقضت بالبراءة في ٩ من مارس سنة ١٧٦٥. وكان فولتير يقول عن صنيعه (لقد صنعت قليلاً من الخير وهذا أحسن مؤلفاتي).

obeikandl.com

مع المعتصم:

أبدل المعتصم أخواله الترك بالفرس وأسقط آباءه العرب من العسكرية المنتظمة غداة ولي الخلافة سنة ٢١٨: فلم يعد العرب أداة القوة في دولة العرب، واختفت الأسماء العربية ولمعت أسماء الأتراك: أشناس وإيتاخ وبغا الكبير وبغا الصغير وباغر.

وأعاد التاريخ العباسي نفسه في بني "علي الرضي" فمات ابنه محمد الجواد [١٥١] في بداية عهد المعتصم سنة ٢١٩ في جو مليء بالشكوك، وكان زوجًا لبنت المأمون، وابنًا لولي عهده، وخصيصًا به، يجري عليه في العام ألف ألف درهم ليجعل له مكانًا في الأمة ويعزبه الشيعة. والمعتصم يلي الخلافة بعهد من المأمون لاحق لعهد ع لي الرضي الذي مات ولم يعزل.. أما العباس بن المأمون فأعدم لاتهامه في مؤامرة.

وأقبل صاحب الوصية على تنفيذ الموصى به.

وكانت قد تلاحقت سنوات ثلاثة على الموصى فيه وهو في أغلاله من سنة ٢١٨ إلى ٢١٩ إلى سنة ٢٢٠ فمضى عليه في السجن والقيد ثمانية وعشرون هلالاً يأتيه فيها التخذيل والتثبيط من بعض محبيه.. قال له عمه اسحق بن حنبل لم لا تجبهم إلى ما يطلبون تقية؟ فكان يجيب: وكيف يصنعون بحديث خباب: "إن من كان قبلكم كان أحدهم ينشر بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه" ويقول للمخذلين: "إذا سكت العالم تقية والجاهل يجهل. فمتى يظهر الحق" ثم صار – هو – يهون الأمر على الآخرين فيقول: "ما أبالي بالحبس. ما هو ومنزلي إلا واحد. ولا قتلا بالسيف. إنما أخاف فتنة السوط وأخاف ألا أصبر" فهو لا يهاب العذاب والقتل فشجاعة فكره في الذروة. وإنما يخاف رد الفعل العفوي، من جسده الإنساني.

لكن السماء لم تتخل عنه فوافاه التأييد المناسب في الزمان والمكان، من أقرب الناس إليه وأقدرهم على شد أزره. وما هو إلا سجين معه سمعة فقال له: "لا عليك يا أبا عبد الله فما هو إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي". فقوى قلبه أنه ستفقده السياط صلته بالدنيا وإن كانت هذه الصلة قد لا تعود.

---

(١٥١) محمد الجواد هو الإمام التاسع للشيعة الاثنا عشرية وسموا بذلك لأنهم اثنا عشر: على – فابنة الحسن – فالحسين – فعلي زين العابدين – فمحمد الباقر – فجعفر الصادق – فموسى الكاظم – فعلي الرضي – فمحمد الجواد – فعلي الهادي – فالحسن العسكري – فمحمد المهدي المنتظر.

وتبادل الزملاء الجدد المصالح. فحول وجوده بين المسجونين دار السجن إلى دار عبادة. يؤم فيها إمام المسلمين جماعة السجناء. وتلاحقت آلاء السماء. فإذا مثبت جديد لفؤاده، وهو الذي يريد الأشياء دائمًا من السنة. بل يجيئه على الوجه الذي يريده، وهو الذي يريد السنة دائمًا بإسناد.. فبعث إليه آدم بن أبي عباس العسقلاني رسولاً يحدثه حديث الرسول بإسناده "حدثنا الليث بن سعد عن محمد بن عجلان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ (من أرادكم على معصية الله فلا تطيعوه) فأطرق أحمد هنيهة ليستوعب كلمات الرسول وكأنما يرى فيها رسالة خاصة منه في واقع حاله. وأدرك فضل آدم فدعا ربه شاكرًا لأنعمه راجيًا لآدم. قال "رحم الله دم العسقلاني حيًا أو ميتًا".

وكأنما عاش حتى ذلك العام ليبلغ الثامنة والثمانين وينصح ابن حنبل، ويظفر بدعوة منه، ثم يموت في العام ذاته.

وأخيرًا حولوه من السجن العام إلى دار اسحق بن إبراهيم والي بغداد – ليتداولوه على انفراد. فكان يوجه إليه كل يوم أحمد بن رباح وأبا شعيب الحجام يناظرانه فإذا انصرفا دون أن يقبل كلامهما زيد قيد في أقياده حتى صارت في رجله أربعة.

وفي الليلة الرابعة دخل عليه يروعه بالحديث عن مصيره: أنه القتل بحديد بارد!

قال: يا أحمد إنها والله نفسك إنه لا يقتلك بالسيف، إنه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك ضربًا بعد ضرب وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس.

وراح يبدئ ويعيد في حجج المأمون: أليس قد قال الله: ﴿**إنا جعلناه قرنًا عربيًا**﴾ أفيكون مجعولاً إلا مخلوقًا؟ قال أحمد: قال عز وجل: ﴿**فجعلهم كعصف مأكول**﴾ أفخلقهم؟ فبهتته حجة من جنس حجته. فأبلس ثم قال: اذهبوا به.. فحملوه على دابة، وعليه الأغلال يكاد من ثقلها يخر على وجهه حتى أدخل في دار الخلافة ببغداد بيتًا ليس فيه سراج وأقفل عليه الباب.

* * *

وفي الغداة حمل إلى المجلس.

وخرج المعتصم على قومه في زينته ورهط السوء – المعتزلة – مجموعون لليوم المشهود. يشدون أزر الخليفة، وكان صاحب السجن قد ضرب عنقي رجلين في ذلك النهار

لتتخلع القلوب، والجلادون وقوف، والأسواط كالأسياف في قبضتهم، ليحوا عقدة المأساة بأيديهم..!

وتراءى خليفة المسلمين، والبعض يقول إنه كان أهيب خلفاء بني العباس، في الأربعين من عمره. سنراه بعد معركته مع أحمد يسوق الجيوش إلى الروم فيخرب أنقرة ويفتح (فتح الفتوح) – كما يدعون أبو تمام – عمورية – سنة ٢٣٣.

والثاني إمام المسلمين رجل ربعة كالأول.. أما الوجهان والشخصان فنقيضان. فأحمد يكبر الخليفة بستة عشر عامًا. أسمر شديد السمرة. في لحيته شعرات سوداء. ويخصب خضابًا ليس بالقاني.. معتم حسن الوجه. عليه إزار غليظ لكنه أبيض نظيف – لم ير تلاميذه أحدًا أنظف منه ثوبًا ولا أشد تعاهدًا لنفسه، في شاربه وشعره، ولا أنقى ثوبًا وشدة بياض.

أما العقلان: فأعلم رجل على وجه الأرض. يقابل أقل خلفاء بني العباس حظًا من العلم حتى ذلك اليوم.

وأما الجسدان فشيخ في الأصفدة. أضمر الإرهاق جسده. يواجه رجلاً تضرب الأمثال بقوته.. يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات.

وابن أبي داؤد هنالك يعض بنواجذه، ليلعب دوره الذي دبره، ويثب بين الملهاة والمأساة كالقردة. وهو خصم وحكم. ينتزع الأقارير في العلم بالابتزا القهري للفكر. ويجري الامتحان بالمباغته ويقنع العلماء بالإبذاء..

وفيما أحمد يتحرك أرجع البصر فإذا أبو عبيدة الرحمن الشافعي – وكان تلميذًا للشافعي معه – فسأله أحمد: أي شيء تحفظ عن الشافعي في المسح؟ قال ابن أبي داؤد: انظروا رجلاً هو ذا يقدم لضرب العنق يناظر في الفقه.

وهذا الإعلان للنتيجة المقررة للامتحان قبل إجرائه هو إعلان عن حقيقته. أما هذا السؤال في الفقه لزميل بمجرد أن تراءى الزميلان فيقدم لنا دليلاً قاطعًا، لأنه عفوي، على أن نفس أحمد كانت في غاية توازنها. وأن الدين وحده كان مشغلة فؤاده لا متاعب الساعة.. فهولا يعيش في المتاعب وإنما يعيش في الدين.

وسنراه مثلاً يحتذى من زميله، على الشافعي، (يوسف بن يحيى البويطي (٢٣٢) خليفة الشافعي بمصر) إذ يحبس في خلق القرآن كمثله، فلا يحس بأربعين رطلاً من الحديد على جسده

وإنما يحس بمسئولية العلم. فيكتب إلى الربيع المرادي يوصيه بمجلس التدريس الذي جلسه من بعده ثم يقول له: "إنه ليأتي على أوقات ما أحس بالحديد أنه على بدني حتى تمسه يدي" ويقول للناس وهو يموت في سجن الخليفة رافضًا أن يقول بخلق القرآن "إني لأرجو أن يجزي الله عز وجل أجر كل ممتنع في هذه المسألة لسيدنا الذي ببغداد".

وقديمًا حكم على سقراط (٣٧٩ ق. م) بالإعدام لأنه يفسد عقائد الأثينيين الوثنيين في عبادة الأصنام! فمكث شهرًا فيما بين صدور الحكم وتنفيذه يحاضر تلاميذه في خلود الروح. ولما دعى ليشرب السم ودع تلاميذه في وداعة. ورفع الكأس إلى فمة في صفاء نفس كأنها لا تشرب الموت.

والرجل الذي يموت من أجل فكره لا يحس بالأذى إذا سلم له فكره. والمصلحون العالميون يرتفعون فوق مشاكل الزمان والمكان ليواجهوا تبعات الزمان كله في كل مكان. لا يحسون ظلم الظروف الراهنة أو الأحداث أو الإساءة البدنية إلا بمقدار نسبتها إلى مسافة الزمان كله ومساحة الكون كله والإنسانية قاطبة. وعندما يكون العظيم إمامًا في الدين تلتقي الدنيا والآخرة، وتكون وجوه العذاب والاسترهاب أبوابًا للتعبد وأسبابًا للثواب.

* * *

وتتابعت الدلائل على التوازن. فإذا المتهم يتولى زمام المبادرة. والمسئول يستدرج السائلين من حيث لا يعلمون. إذ ينقلهم إلى ميدانه ومنهجه، ميدان النصوص ومنهج استنباط الأحكام منها مباشرة، وتفسير القرآن والسنة. فأمسوا غرباء يحاربون في أرض غريبة بسلاح لديه أسراره. وإذا هو يعرف من أين يأتي عقل الخليفة.. من قبل جده.

يقول فيما بعد: قال المعتصم: ادنه. فلم يزل يدنيني حتى قربت منه، ثم قال اجلس فجلست وقد أثقلتني الأفياد، فمكثت قليلاً ثم قلت: تأذن في الكلام؟ فقال تكلم.

فقلت: إلى م دعا الله ورسوله؟

قال المعتصم إلى شهادة أن لا إله إلا الله. فقلت فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، ثم قلت: إن جدك عبد الله بن عباس يقول: "لما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ سألوه عن الإيمان فقال: أتدرون ما الإيمان؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يعطوا الخمس من المغنم"..

قال المعتصم: لولا أني وجدتك في يد من كان قبلي ما عرضت لك ثم قال: يا عبد الرحمن بن اسحق ألم آمرك برفع المحنة؟ ثم قال لهم – ناظروه كلموه ثم قال: يا عبد الرحمن كلمه ناظره.

فقال لي عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟ قلت – ما تقول في علم الله عز وجل؟ فسكت.. فقال له بعضهم – أليس قد قال الله عز وجل: ﴿**الله خالقُ كُل شَيْء**﴾ والقرآن أليس هو شيء؟

قال أحمد: قال الله عز وجل: ﴿**تُدَمُرُ كُلَّ شيء بأَمرِ رَبها**﴾ أفدمرت إلا ما أراد الله عز وجل؟ والله تعالى لم يسم كلامه في القرآن شيئًا. يقول تعالى: ﴿**إنَّما قولُنا لِشَيءٍ**﴾ فالقول ليس الشيء ولكن الشيء هو الذي يقول له الله. ويقول: ﴿**إنما أمرهُ إذا أراد شيئًا**﴾ فالشيء ليس أمره وإنما الشيء هو الذي كان يأمره.

قال بعضهم: قال الله عز وجل: ﴿**ما يَأْتِهِمْ مِنْ ذِكْر مِنْ رَبَّهم مُحْدَث**﴾ أفيكون محدثًا إلا مخلوقًا؟

وأجاب أحمد: قال الله عز وجل ﴿**والقرآن ذي الذَّكْر**﴾ والذكر هو القرآن ويلك ليس فيها ألف ولا لام. فالمراد هو ذكر الرسول وذكر الرسول يجري عليه الحدث. أما ذكر الله – إذا ورد – فلا يجري عليه الحدث (ولذكر الله أكبر) (وهذا ذكر مُبارك) أما النبي فعلمه الله فهذا محدث.

وذكر بعضهم حديث عمران بن حصين أن الله عز وجل خلق الذكر فقال أحمد هذا خطأ حدثنا غير واحد: أن الله كتب الذكر.

واحتجوا بحديث ابن مسعود: "ما خلق الله عز وجل من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي": فقال أحمد: "إنما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض ولم يقع على القرآن".

قال بعضهم: حدثنا حديث خباب: "يا هنتاه – تقرب إلى الله بما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب من كلامه" قال أحمد هذا كذا.. (يقصد أن الشيء الذي يتقرب به غير كلامه) وجاش فكر أحمد بمعاني النصوص جيشان الماء العذب من ينابيعه وأصاب الآخرين الحصر. فانطلقوا يشتمون. ويقسمون قسم العاجزين.

قال ابن أبي داود: يا أمير المؤمنين هو والله ضال مضل مبتدع. وتتابع الحاضرون يشتمون..، فلم يؤخذ الخليفة بتهويشهم أو بتلبيسهم فأهاب بهم: ناظروه كلموه فكانوا يتكلمون ثرثرة. ويعود الخليفة يهيب به: ويحك ما تقول؟ ويقول أحمد ما قاله دائمًا: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل.. ثم لأقبل ابن أبي داؤد على أحمد يكلمه فلم يلتفت إليه.

قال المعتصم لأحمد: ألا تكلم أبا عبد الله؟ (يقصد ابن أبي داؤد) لكن أبن أبي داؤد أبدأ من ساعة إذا رمى الإمام بالضلال فنركه أ؛مد تنكيرًا ولم يزد في شأنه على أن قال: لا أعرفه من أهل العلم فأحدثه.

فتوجه ابن بأبي داؤد بالكلام للخليفة – يلف أن استجابة أحمد أحب إليه من مائتي ألف دينار وأكثر. وأقبل الخليفة – هو الآخر – يحلف وينثر العدات نثار الأسخياء قال: ولالله لئن أجابني لأطلقن عنه بيدي ولأركبن إليه بجندي ولأطأن عقبه ثم قال: يا أحمد: إني والله عليك لشفيق وإني لأشفق عليك شفقتي على هارون النبي. ما تقول؟

قال أحمد: أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل.

وطال المجلس وشجا الهم المعتصم. فقال: قوموا. والتفت إلى أحمد لفتة مودة فقال ما أعرفك. ألم تكن تأتينا (ولعله كان يقصد غشيان مجالس المأمون).

قال عبد الرحمن بن اسحق: يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتك والحج والجهاد معكم [١٥٢].

---

(١٥٢) مر بنا قول أحمد: "السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر – ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين".

فرأى أحمد هو طاعة ولي الأمر وعدم الخروج على الأمراء بالسيف وإن جاروا. والرسول عليه السلام يقول: "من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدًا من طاعته) ولما سأل الصحابة رسول الله عن قتالهم للأمراء الذين لا يقيمون الصلاة في وقتها – قال: (لا. ما أقاموا الصلاة).

وللرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله تعالى بهم أكثر. إن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر) وأمر عليه الصلاة والسلام بقتل من يشق عصا الطاعة ويفرق الجماعة قال: "من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه" ويقول: "الإمام الجائز خير من الفتنة. وكل لا خير فيه وفي بعض الشر خيار" ويقول عمرو بن العاص: "إمام غشوم خير من فتنة تدوم".

قال المعتصم والله إنه لعالم. وإنه لفقيه. وما يسوءني أن يكون مثله معي يرد عني أهل الملل. واستحكم اليأس بالمجلس. ثم تحول الخليفة من الترغيب إلى الترهيب. فقال يا أحمد: (أما كنت تعرف صالح الرشيدي)؟ قال سمعت باسمه. قال كان مؤدبي وكان في ذلك الموضع جالسًا – وأشار إلى ناحية من الدار – وسألته عن القرآن فخالفني فأمرت به فوطئ وسحب.

وعاد المعتصم يلتمس أي مخرج – لدى رجل فقهه ضد المخارج! قال يا أحمد أجبني إلى شيء فيه أدنى فرج لك حتى أطلق عنك بيدي فقال: أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل.

وركب الخليفة من الهم ما ركبه. فقام. ورد أحمد إلى السجن.

ولما كان المغرب جاءه رجلان من أصحاب ابن أبي داؤد يناظرانه ويلزمانه حتى إذا كان وقت الإفطار – فلقد كان الوقت رمضان – جيء بالطعام فاجتهد أن يفطر فلم يفطر وفي الليل جاء قاضي القضاة يقول: يقول لك أمير المؤمنين ما تقول؟ فيرد: آتوني شيئًا من كتاب الله. فأعلن له ما بيتوه له من رغب ورهب: "إن أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس – ويقول إن أجابني جئت إليه حتى أطلق عنه بيدي). ثم انصرف.

* * *

وظاهر أن الحكم الذي لم يصدر بعد، والذي تفلت خبره الآن من لسان قاضي القضاة قد تفلت منه من قبل إذ رآه يسأل في الفقه، بل قد أحيط به الممتحن من قبل صراحة على لسان اسحق ابن إبراهيم والي بغداد.

وظاهر كذلك الانتصار العلمي الذي أحرزه أحمد في الجلسات والأثر الذي خلفه في نفس خليفة مسلم، بمجرد أن أخذ في تفسير القرآن والسنة والاستدلال بهما، حتى ليعلن الخليفة كالمعتذر أنه لو لم يجده في يد من كان قبله لما أخذه، ويطلب منه أن يواتيه على رأيه ويجيب بشيء فيه أدنى فرج له ليطلق عنه بيده.

وأحمد يقول: "إذا كان السلطان صالحًا فهو خير من صالحي الأمة. وإذا كان فاسقًا فصالحوا الأمة خير منه". وابن تيمية يقول في سياسته الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (يقال: ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان. والتجربة تبين ذلك ولذلك كان السلف كالفضل بن عياض وأحمد بن حنبل نفسه يقولون: لو كان لنا دعوة مجابة لدعونها بها للسلطان). وإنكار المنكر لا يبيح الإيقاع في منكر أشد.

أحمد بن حنبل

لكن عصبة ابن أبي داؤد توسوس للخليفة أنه يقول: إن أخاك مات لأنه دعا عليه، ويضيفون أنه دعا ربه: اللهم إن كان هذا القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته – يقصدون المأمون – وابن أبي داؤد يزايد فيضيف: "إن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله وإنه غلب خليفتين". فهاج فيه الوفاء وكبرياء الخلفاء.

وفي اليوم التالي أعيد أحمد إلى مجلس الخليفة فيتكلم هذا فيرد عليه أحمد ويتكلم آخر فيرد أحمد.. فإذا جاءوا بكلام مما ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله قال: ما أدرى ما هذا.. قال قائل منهم: يا أمير المؤمنين. إذا توجهت الحجة له علينا ثبت وإن ألزمناه بشيء يقول ما أدرى ما هذا؟

ولم يزالوا كذلك حتى حان وقت الزوال فاكفهر وجه المعتصم. فقام وخلاه مع عبد الرحمن بن اسحق ثم ردوه إلى سجنه وقيدوه.

وابن أبي داؤد من وراء الجلسات لا يرقب إلا ولا ذمة.

قالوا: احتج أحمد في المناظرة بحديث "... عن قيس بن أبي حازم.. قال: كنا مع النبي ﷺ في ليلة أربع عشرة من الشهر فنظر إلى البدر فقال: (أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا البدر لا تضامون في رؤيته).. فانصرف ابن أبي داؤد فوجه من فوره إلى أعلى بن المديني، وهو ببغداد مملق ما يقدر على درهم، فأحضروه وما كلمه حتى وصله بعشرة آلاف درهم وقال له هذه وصلك بها يا أمير المؤمنين. وأمر أن يدفع له جميع ما استحق من أرزاقه وكان له رزق سنتين ثم سأله عن حديث الرؤية المشار إليه – ما هو؟ قال علي: حديث صحيح.

قال قاضي القضاة: هل عندك فيه شيء.

قال علي: يعفيني القاضي من هذا.

قال قاضي القضاة: يا أبا الحسن هذه حاج الدهر...!

ولم يزل به حتى قال علي: في الإسناد من لا يعول عليه ولا على ما يرونه وهو قيس بن أبي حازم، إنما كان إعرابيًا.. فقبله ابن أبي داؤد واعتنقه وعجل إلى مجلس المعتصم يجرح

قيسًا وينفي صحة الحديث مع أن عليًا – لو صحت الرواية كلها – يقول إن متن الحديث صحيح وإن قال كلامًا في أحد رواته [١٥٣].

ظهور النتيجة:

وفي الليلة التالية، وكان يوم أربعاء لست بقين من شهر رمضان سنة ٢٢٠، حدثت أحمد نفسه أن ضمير الغد يضمر له أشياء فطلب خيطًا شد به أقياده وأصلح سراويله حتى لا يتعرى إذا أصابه أذى.

وأسفر الصبح – وأدخل على الخليفة والدار غاصة. فجعلوا يدخلونه من موضع إلى موضع فيرى سيافين وجلادين، ولم يكن في اليومين السابقين كثير أحد منهؤلاء. فلما انتهى إلى مجلس الخليفة أقعده ثم عاد الخليفة يقول لهم: ناظروه كلموه. وجعل صوت الإمام يعلو على أصواتهم، والقائمون على رأس المعتصم يؤمنون بأيديهم، ليخفض صوته. ولما طال المجلس انتحى الخليفة ناحية ليخلص نجيًا حتى إذا تراوضوا عاد يدعوه ويمنيه، وعاد أحمد يقول: آتوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله. وضاق ذرع المعتصم فكرب، وأزله الغضب، من سوء ما هو محكوم عليه أن يصنعه وما جهد جهده ليتفاداه – فقال: عليك اللعن. خذوه واسحبوه وخلعوه.

وعلق الإمام بالعقابين وصار بينه وبين الأرض مقدار قبضة. وتعاقب عليه الجلادون بأسواطهم. ورهط السوء يقولون: أجب. وهو يقول: آتوني شيئًا من كتاب الله. والساط تمزق جسده والجلادون يتداولونه والمعتصم يقول لهم: تقدموا... ويقول للرجل منهم: شد قطع الله يدك!! قيل ضرب ثمانية وثلاثين سوطًا وغاب عقله مدة فلم يدر ما جرى له.. فلما أفاق وجد الأقياد حلت وقال له رجل ممن حضر: إنا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية ودسناك.

ويروي أحمد: فما شعرت بذلك وأتوني بسويق لأشرب. فقلت لست أفطر.. ونقلوني إلى دار إسحق بن إبراهيم فتقدم ابن سماعة (القاضي) فصلى فلما انتقل من الصلاة قال لي صليت والدم يسيل في ثوبك. فقلت قد صلى عمر وجرحه يثعب دمًا.

---

(١٥٣) المحدثون جميعًا يعدلون قيسًا. وأبو داود يقول فيه (أجود التابعين إسنادًا قيس بن أبي حازم) وقد مر بنا قول أحمد إنه أفضل التابعين هو وأبو عثمان النهدي وعلقمة – إذ هو وحده الذي روى عن العشرة المقدمين من الصحابة.

ويصف المشهد شاهد عيان فيما بعد – والخليفة على مغاضيته لأحمد والشاهد على شرطة المعتصم، خليفة لإسحق بن إبراهيم – فيقول محمد بن إبراهيم بن مصعب: ما رأيت أحدًا لم يداخل السلطان ولا خالط الملوك أثبت قلبًا من أحمد يومئذ. ما نحن في عينه إلا كأمثال الذباب.

كان أصحاب المحابر خارج الأسوار لا يكادون يحصون ينتظرون خروج الإمام!! والمروزي ينقل أخبارهم إليه وينصحه بالإجابة فيقول أحمد له: أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء كلهم.

وكان كبار المحدثين وأحمد يضرب، جلوسًا عند عاصم بن علي ومعه إبراهيم بن أبي الليث وأبو عبيد القاسم بن سلام. فجعل عاصم يقول: ألا رجل يقوم معي فنأتي الخليفة فنكلمه....! فما يجيبه أحد... وصاح واحد أنا أقوم معك. وكان يناب عاصم قد يعثن إليه أن ينعيه أحب إليهن من أن يجيب بالخلق. لكن الرسالة جاءته بعد إذ أخاب! وتذكر إبراهيم بناته فقال: أبلغ إلى بناتي فأوصيهن وأجدد بهن عهدًا فذهب وعاد يقول: إني ذهبت إلى بناتي فبكين.

أما أبو عبيد القاسم بن سلام فذهب إلى باب المعتصم فجعل يقول: أيضرب سيدنا لأصبر أيضرب سيدنا لأصبر... وسمع بشر الحافي يقول: اللهم ثبته. اللهم ثبته. ثم لم يزل كالحيران يقول: إن كان أجاب أدخل فأقوم مقامه. فخرج رجل فقال لم يجبهم. فقال: الحمد لله.

وذعر إغماؤه الحاشية والزبانية. والأمة خارج الأسوار تنتظر. فخلوا سبيله فحمل إلى داره.

ومكث زمانًا يداوي جراحة وإسحق بن إبراهيم يسأل عما صار من أخباره. والخليفة يسأل عما صار من أمر الجراح. وبقى أثر الضرب في ظهره حتى آخر حياته.

قال له واحد من المكلفين به وهو يبرح المكان: ادع على ظالمك فأجابه: "ليس للصابر من دعاء على الظالم".

وروى عنه أنه قال: ما خرجت من داره (المعتصم) حتى جعلته في حل. وذكرت في قول النبي: "لا يقوم يوم القيامة إلا من عفا" فعفوت عنه وذكرت قول الشعبي: إن تعف عنه يكن لك الأجر مرتين.

وروى أنه قال: ذكرت ضرب المعتصم إياي ومر بي في الدرس: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ فأحللته من ضربي في السجود. وقيل أحله يوم فتح عمورية.

وأحل أحمد من مخرجه من حضر ضربه ومن بدت البغضاء من أفواههم، إلا ابن أبي داؤد وعبد الرحمن بن اسحق داعيتان لبدعة... ومضت الأيام فقال لابنه عبد الله: "أنا أهون على الله عز وجل من أن يعذب في أحد. أشهدك أنهما في حل".

وفي العفو من سيد المرسلين دروس. قتل العبد وحشى في معركة أحد حمزة عم النبي وبطل الإسلام عند انفجار فجره بمكة وعند إعلان نصره يوم بدر. ومثلت بجثته هند بنت عتبة. وقال عليه الصلاة والسلام يومذاك "ما وقفت موقفًا قط أغيظ لي من هذا" فلما جاءه وحشي مسلمًا اكتفى بأن قال له: "ويحك غيب عني وجهك" ثم جاءته يوم فتح مكة امرأة تسلم وتستسلم وتقول له: "أنا هند بنت عتبة" قال عليه الصلاة والسلام: "مرحبًا بك".

ولما جاء سائر الأعداء قال لهم: أنتم الطلقاء.

أما على بطل بدر الآخر وبطل أحد وبطل كل مشهد فقه ربه لينقل للبشرية علمه وأدبه. ظفر بابن الزبير يوم وقعة الجمل فاكتفى بأن قال له: "لا أريتك بعد اليوم". وظفر بسعيد بن العاص فأعرض عنه. وظفر بأهل البصرة فصفح الصفح الجميل.

* * *

كان هذا الحدث الضخم في تاريخ الإسلام بامتحان إمام المسلمين حادثة واحده في يوميات الحياة الخاصة لرجل. فما أكبر الرجال لكبار! إنهم يقدمون قومهم بالتضحية من أجلهم. وكثيرًا ما يصنعون التقدم وحدهم أو يصنعونه على رغم العالم.

وعندما تجتمع فضائل المثل العليا في اللحظات الحاسمة ينتج من حسابها مجموع يفرق لحساب لما فيه من عنصر رباني – وبهذا يفوق العظيم نفسه ويأثر التاريخ أثره.

ولم يكن بدعًا أن يصنع إمام المسلمين ما صنع وإنما العجيب ألا يصنع. فليس أحب للنفس الخالصة لله من خضوعها لقانونها.

وليس أذى الفكر سهمًا غربًا لا يعرف من أين أتى. فالأذى كرجع الصدى لأصوات المصلحين. يريشه إلى صدورهم خوف الضعفة من الأقوياء أو حذر اليابسين من كل طلعة. أو

استشراف الذين أزلتهم الشياطين إلى المنفعة. وهو درس عام في المذاهب الفقهية بما أصاب الأئمة الأربعة، وغيرهم. ولولم يقدم الرواد زكاة التقدم بالصبر على العذاب لما زكى لهم فكر (١٥٤).

وسنرى دروس السابقين تراثًا يتواثه اللاحقون... فيحرص السرخسي بعد قرنين ونصف قرن وهو يشرح فقه أبي حنيفة في الجب على أن يسجله وينقله مقررًا مكررًا في أواخر الكتب، وهو يميلها من أدنى الجب على التلاميذ في أعلاه، فيملي مرة: "هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات إملاء المحبوس عن الجمع والجماعات" ويملي أخرى "انتهى شرح

---

(١٥٤) حدث الحسن بن عبد العزيز الجوري تلميذ أحمد عن الحارث بن مسكين حديثًا أعجب به أحمد وقد كان للحارث من المحنة نصيب قال: (أخبرني.. عن مالك بن أنس أن الزهري سعى به حتى ضرب بالسياط. وقد ضرب سعيد بن المسيب بالسياط وحلق رأسه ولحيته. وضرب أبو الزناد بالسياط وضرب محمد بن المنكدر وأصحاب له بالسياط وقال عمر بن عبد العزيز: لا تغبطوا أحدًا لم يصبه في هذا الأمر أذى. وما ذكر مالك نفسه).

وكان أحمد شديد الإعجاب بسعيد بن المسيب، رفض سعيد أن يبايع الوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان وأبوهما حي. فكتب أبوهما إلى وإلى المدينة أن يعرضه على السيف فإن أصر فليجده خمسين جلده وليطف به في أسواق المدينة فلما قدم الكتاب على الوالي استعان عليه بثلاثة من "فقهاء المدينة السبعة" وكان يتصدرهم. فقصد إليه عروة بين الزبير وسالم بن عبد الله بن عمر وسليمان بن ياسر يعرضون عليه المخارج في ثلاث خصال أعطنا إحداهن. فإن الوالي قد قبل أن يقرأ الكتاب عليك ولا تقول نعم. فأجاب: لا. يقول الناس بايع سعيد بن المسيب!! ما أنا بفاعل.

قالوا: تجلس في بيتك ولا تخرج أيامًا؟ قال فأنا أسمع الأذان فوق أذني – حي على الصلاة حي على الصلاة! ما أنا بفاعل.

قالوا: فانتقل من مجلسك إلى غيره فإنه يرسل إلى المجلس فإن لم يجدك أمسك عنك.

قال سعيد: أفرقا من مخلوق! ما أنا بمتقدم شبرًا ولا بمتأخر).

ثم دعاه الوالي وأنبأه بضرب عنقه إن رفض فرفض. وقال: "نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين" فأخرجه إلى السدة وسلت السيوف وهو يرفض. ومدت عنقه وهو يرفض. ثم عدل الأمير وأمر بتجريده من ثيابه وضربوه وطافوا به في أسواق المدينة! ثم ردوه ومنعوا الناس أن يجالسون فكان إذا جاءه أحد أقامه من عنده مخافة أن يؤذى بسببه.

الإقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الأسرار إملاء المحبوس في محبس الأشرار". يشرح القرآن بعده ابن تيمية وهو محبوس في قلعة ويحبس تلميذه ابن القيم من جراء فكره [١٥٥]..

لكن أحمد يمتاز بأن معركته كانت معركة القرآن ذاته. فما أهون ما يقدمه في سبيله ولو كان القتل يومًا، يومًا، على مدار ثمانية وعشرين شهرًا تنفتح له فيها كل أبواب التقية بكلمة يقولها مقسورًا عليها، فيغلق الأبواب بإصرار وهدوء بال ويستعذب أسباب العذاب... وكأنه يطلب المزيد.

لزم أحمد داره وامتنع عن الحديث زمانًا. أو هو كان يحدث الخاصة ولا يجلس مجلس العام للأمة.

وتعلم المسلمون من الموقف العظيم أن الحق لا يكون مع الجماعة لكثرتها وإنما الحق هو الحق في ذاته... ذلك قول ابن مسعود: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك. وقول نعيم بن حماد وهو ممن رفضوا القول بخلق القرآن: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك فإنك الجماعة حينئذ. وكما يقول ابن القيم. شذ الناس كلهم إلا نفرًا يسيرًا زمن أحمد كانوا هم الجماعة.

---

(١٥٥) وفي سبيل الله ورسلوه عذب عمار بن ياسر هو وأبوه وأمه. وعذب بلال بن رباح. وقتل الخلفاء الراشدون الثلاثة والحسين بن علي وأهله وإخوته وخبيب بن عدي بعد أن استنظر المشركين فصلى ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا بي الجزع لزدت. وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلي وحطيط الزيات وأبو البختري وعبد العزيز بن غالب وآخرون كثيرون نالهم الأذى في سبيل الله.

وفي معركة مستمرة بين الفكر وبين أعدائه من عهد اكز جوارس (٥٠٠ – ٤٢٨ قبل الميلاد) ينفي من أجل رأيه فيقول (إني لم أخسر أبناء أثينا ولكن هم الذين خسروني) إلى سقراط يشرب السم من أجل رأيه، إلى أرسطو المعلم الأول يموت في منفاه سنة ٣٢٨ ق. م من أجل رأيه إلى ابن رشد شارح أرسطو يموت في منفاه في المغرب من أجل رأيه بعد ألف وخمسمائة عام، إلى ليلة ٢٤ من أغسطس سنة ١٥٧٢ بعد الميلاد إذ تأمر ملكة فرنسا فتقرع أجراس الكنيسة لتقع المذبحة الخالدة في تاريخ أوربة (سانت برتلمي) في طول البلاد وعرضها لتسفك في ليلة واحدة دماء عشرين ألف فرنسي في غير حرب خاضوها، إلى حر سرفيه بناء على طلب كالفن (٥٤٦) مصلح المسيحية في جنيف! إلى محاكم التفتيش في أسبانيا إلى محاكمات جاليليو حيث أنكر الحقيقة الكونية بتمامها ليرتاح من رجال الدين (١٦٦٣) فلا تسلم رأسه وهو في السبعين إلا بعد أن يكتب بخط يده: (أعلن أني هجرت الرأي المزيف الذي يقول إن الشمس مركز الكائنات ولن أتمسك أو أدافع أو أمام هذه النظريات الزائفة على أي وجه) وكون الشمس مركز الكون مثل كروية الأرض وسبحها في الفضاء نظريتان إسلاميتان قديمتان وإن كانت بالنسبة للعالم الغربي كشفين حديثين جدًا من كشوف رجاله!.

وعامل ابن أبي داؤد والمعتصم الآخرين ممن لم يجيبوا معاملة مغايرة فأهمل منهم قوم وحبس قوم. فلم يلتفت إلى أحد من هؤلاء، كالحسن بن الصباح البزاز بقى في سجنه حتى أطلق بعد موت المأمون، والحارث بن مسكين بقى في محبسه حتى أطلقه المتوكل وإنما كان أحمد مقصودًا – كما يقول الذهبي – لجلاله قدره وعظم موقفه.

* * *

وفي ربيع الأول سنة ٢٢٧ مات المعتصم بعد إذ كان مال إلى الرفق في الأمر وقيل إنه منع امتحان الفقهاء بالفعل. فلما خلفه ابنه الواثق لم يترفق وكان من سعة ثقافته يسمى المأمون الأصغر. فغلا الأصغر في تطرفه ففاق فيه الأكبر.

ففي سنة ٢٣١ وقع بين أيدي الروم من المسلمين (٤٦٠٠) أسير فأمر ابن أبي داؤد – وأطاع الخليفة – أن من قال من المسلمين (القرآن مخلوق) فأطلقوه وأعطوه دينارًا ومن امتنع فاتركوه في الأسر.

وكان أحمد بن نصر الخزاعي من جلة العلماء في حلقة أحمد، يناهز بالثمانين ويدعو للإصلاح مع جماعة، فاتهم معهم بأنهم متمردون يأتمرون بالخليفة. فاقتيدوا إليه. فقال له الواثق: دع ما أخذت له: ما تقول في خلق القرآن؟ قال كلام الله قال: أمخلوق هو؟ قال كلام الله – ولم يزد – قال: أفترى ربك يوم القيامة؟ قال: كذا جاءت الرواية. فدعا الواثق بالسيف وأمر أن يمدوه وتشد رأسه ومشى الخليفة الشاب فضرب بيده عنق الشيخ وهو يقول: "دعوني أحتسب خطاي في هذا المنافق....".

فكان ابن حنبل يقول عن ابن نصر: "ما كان أسخاه لقد جاد بنفسه".

كان أحمد أيا مئذ يحدث بحديث الرسول: "لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة فادعو للبلاء صبرًا" ثم يقول: "اللهم رضينا – اللهم رضينا".

ولما جاءه نفر يقولون إن هذا الأمر فشا وتفاقم، وان أبي داؤد يأمر المسلمين بتعليم الصبيان في الكتاب أن القرآن مخلوق، أمرهم أحمد بالصبر فهذا منهاجه. وناظرهم عليه... فقبلوا وصبروا.

ولم يقدم الواثق على جولة جديدة معه. فبعث إليه: "لا تساكني بأرض". فاختفى عند صاحبه إبراهيم بن هانئ ثلاثة أيام ثم طلب أن يتحول إلى موضع آخر. قال له إبراهيم: لا آمن

عليك. قال أحمد: "إن فعلت أفدتك فائدة" فالتمس له موضعًا خرج إليه فقال لتلميذه: "اختفى رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ثم تحول وليس ينبغي أن يتبع رسول الله في الرخاء ويترك في الشدة".

وظل أشهرًا ينقل ثم عاد إلى منزله يختفى فيه بقية حياة الواثق. لا يلقى أحدًا جهرة وإن زاره البعض خفية. وهو في الواقع يراجع الحديث ويعد مسنده في صورته الأخيرة فحول الله نقمة المنتقم إلى نعمة عظمى للإسلام.

وفي ذات يوم جاءت الموعظة من السنة وصنيع السلف إلى الخليفة الذي قتل أحمد بن نصر بيده على لسان شيخ أدخل عليه في الأقياد. وقد قص علينا الخبر المهتدي بالله بن الواثق بعد إذ صار خليفة. وكانت خلافته نسمة خير هبت على عرش الخلافة. فلقد كان يقول: "إني أستحي أن يكون في بني أمية عمر بن عبد العزيز ولا يكون مثله في بني العباس" فطرح الملاهي وتقشف وجلس للمظالم وسار سيرة عدل وعلم وزهد. لكن الأتراك لم يمهلوه ليحدث إصلاحًا.

روى المهتدي بالله: أدخل على الخليفة الواثق أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد بن إسحاق الأزدي (٢٤٨) وكان شيخًا حسن الشيبة جميل الوجه تام القامة استحيا منه الواثق ورق له فأدناه وأجلسه وقال له: ناطر ابن أبي داؤد – قال الشيخ: إن ابن أبي داؤد يقل ويضعف عن المناظرة. فغضب الواثق ثم أذن له. فانطلق يرشق ابن أبي الواثق بالأدلة [١٥٦] من السنة حتى

---

(١٥٦) قال الشيخ للواثق – هون عليك والتفت إلى ابن أبي داؤد فقال له:

خبرني: أمقالتك واجبة في عقد الدين فلا يكون كاملاً إلا بما قلت؟ قال ابن أبي داؤد نعم.

قال الشيخ – هل ستر الرسول شيئًا مما أمر الله به المسلمين في أمر دينهم؟

قال ابن أبي داؤد: لا

قال الشيخ – أفدعا إلى مقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي داؤد.

قال الشيخ للواثق: يا أمير المؤمنين هذه واحدة.

قال الشيخ: يا أحمد (ابن أبي داؤد) أخبرني عن الله تعالى حين أنزل: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا) هل كان الله تعالى الصادق في إكمال دينه أو أنت الصادق في نقصانه؟ فسكت ابن أبي داؤد.

قال الشيخ للواثق: يا أمير المؤمنين ثنتان.

قال الشيخ: يا أحمد مقالتك هذه علمها رسول الله أم جهلها؟ قال علمها.

أطلقه الواثق. ورواية المهتدي بالله تسير إلى أن أباه كان في أيامه الأخيرة أهدى سبيلاً وإن لم يظهر أثر ذلك في غير هذه الواقعة.

بعد الامتحان:

أجاب الفقهاء الكبار إلى القول بخلق القرآن تقية ومنهم مشيخة المحدثين يحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأبو نصر التمار الأولان بين يدي المأمون، والأخير بعد كتابه الرابع – وشقت إجابة الثلاثة على أحمد لأنهم كانوا عنده في أعلى مرتبة. ولم يكن يتوقع منهم الإسراع في الإجابة. فكان يقول فيهم: "لو كانوا صيروا وقاموا لله لانقطع الأمر وخافهم الرجل. ولكن لما أجابوا، وهم عين البلد، اجترأ على غيرهم".

أما أبو معمر القطيعي القائل: لو تكلمت بغلتي هذه لقالت إنها سنية... فأجاب بما طلب منه وخرج يقول: كفرنا وخرجنا. وأما سعدويه – وقد حج ستين حجة – فأجاب وخرج وقال: يا غلام قدم الدابة فإن مولاك قد كفر. قيل له ما فعلتم؟ قال كفرنا ورجعنا.

قال الشيخ: أفدعا الناس إليها؟ فسكت أحمد.

وقال الشيخ للواثق – يا أمير المؤمنين ثلاث.

قال الشيخ: فاتسع رسول الله أن علمها وأمسك عنها كما زعمت – ولم يطالب بها أمته.

قال ابن أبي داؤد – نعم؟ فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الواثق: يقول يا أمير المؤمنين إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة بما اتسع لهؤلاء فلا وسع الله على من لم يتسع له ما اتسع لهم.

قال الواثق – نعم!

وأمر فحل القيد – فجاذب الشيخ الحداد على الأقياد يود لو يحتفظ بها.

قال الواثق: ولم؟

قال: نويت أن تجعل بيني وبين كفني لأخاصم بها هذا الظالم يوم القيامة.

وبكى الشيخ وبكى الواثق وبكى الحاضرون.

قال الواثق: اجعلني في حل.

قال الشيخ: جعلتك. لقرابتك من رسول الله.

قال الواثق: تقيم معنا – قال ردك إياي إلى الموضع الذي أخذني منه هذا الظالم أجدى عليك.. وقام وخرج.

وأمسى القول بخلق القرآن أسبوبة يتساب بها الناس.

ولم يحدث أحمد حديثًا عمن أجابوا في المحنة. ولما مات أبو نصر التمار لم يمش في جنازته.

ولما جاءه الخزاعي وكان من جلساء ابن أبي داؤد أغلق في وجهه الباب. وكذلك صنع مع أبي خيثمة. وجاءه القواريري يزوره فرد الباب في وجهه وقال: ألم يكف ما كان من الإجابة حتى سلمت على ابن رباح! وابن رباح رسول المعتصم إلى أحمد في غيابه السجن.

وقال لمن سأله. إذا حضرت الصلاة فأي الرجلين يقدم. من امتحن أو من لم يمتحن؟ قال: "الذي لم يمتحن" يقصد الذي لم يجب بخلق القرآن.

وسأله سائل عمن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فأجاب لا يكلم ولا يصلي خلفه. وإن صلى رجل أعاد.

وفي أيام الواثق كان يخرج أحيانًا لصلاة الجمعة. ويقول:

الجمعة تؤتى لفضلها.

ولما سئل أتكتب عمن أجاب في المحنة؟ أجاب عن نفسه أنا لا أكتب عنهم. وأعجبه حديث الأشعث بن قيس – وكأنه قد أجاب في المحنة! عندما اجتمع مع صاحب له على جنازة. فقدم الأشعث صاحبه وقال: إني ارتددت وأنت لم ترتد.

وأخيرًا التقى الصديقان بعد تفرق.. لقد اعتل أحمد وأقبل يحيى بن معين يعود العليل، فدخل فسلم. فلم يرد أحمد السلام.. وفصل بينهما بحر عميق من الصمت الطويل عبره يحيى بقوله: قال الله تعالى: ﴿**إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وقلبهُ مُطْمئنِ بالإيمان**﴾ ثم بحديث عمار بن ياسر: "الأخذ بالتقية" فقلب المريض وجهه إلى الجانب الآخر..

وقام يحيى وخرج وهو يقول: أف.. ويقول: لا يقبل لنا عذرًا. فخرج في أثره أبو بكر المروزي فوجده بالباب لا يريم. فسأله: أي شيء قاله أحمد بعدي؟ قال أبو بكر: يقول يحتج بحديث عمار! "مررت وهم يسبونك فنهيتهم فضربوني" فأنتم قيل لكم "نريد" أن نضربكم.

قال يحيى: مر يا أحمد. غفر الله لك فما رأيت تحت أديم السماء أفقه في دين الله منك.

* * *

هجر أحمد سادة المحدثين تأديبًا لهم لهم لأنهم تهافتوا أمام التهديد بالأذى. وليس من الحكمة أن يدع موقفهم يمر بغير تأنيت. أما من آنسه السلطان وألطفه أو أسنى جوائزه إذ أجاب، فقد أمعن في هجره.

وكان في طليعة هؤلاء على بن المديني (٢٣٤) وهما زميلان قديمان. وعلي يكبر أحمد بثلاثة أعوام، وكان كما يقول أبو حاتم الرازي: "علمًا في الناس في معرفة الحديث والعلل وكان أحمد لا يسميه وإنما يكتبه تبجيلاً له وما سمعت أحمد سماه قط". وشيخا أحمد – سفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد القطان – يعلنان أنهما يستفيدان منه أكثر مما يستفيد منهما؛ وكان علي يستلقي وعن يمينه أحمد وعن شماله يحيى بن معين يملي عليهما، وأبو عبيد القاسم بن سلام يقول فيه: "انتهى العلم إلى أربعة أبو بكر بن أبي شيبة أسردهم له. وأحمد بن حنبل أفقههم فيه. وعلى بن المديني أعملهم. ويحيى بن معين أكتبهم". والبخاري يقول في شيخة: "ما استصغرت نفسي إلا عند علي بن المديني".

لكن عليًا كان يستعمل التقية كل استعمال، فيظهر التشييع بين المتشيعين بالبصرة، ويقول بخلق القرآن بين المعتزلة.

كان يقول للناس: لقد خفت أن أقتل فيقولون له: مثلك في علمك يجيب إلى ما أجبت إليه! فيجيب ما أهون السيف عليكم!

وأدمن على السبح في بحر الخضوع وجرى وراء السراب: رآه إبراهيم الحربي يجري يومًا وبيده نعله وثيابه في فمه وكما يقول إبراهيم: قلت إلى أين؟ قال: الحق الصلاة خلف أبي عبد الله. فظننت أنه يعني أبا عبد الله أحمد بن حنبل – وكان مجافيًا له – فسألته فقال: أبي عبد الله أحمد بن أبي داؤد –فقلت والله لا أحدث عنك بحرف. وكان عنده قمطر من حديثه.

وسقط في أعين الناس وافتضح في المحدثين [١٥٧] واستوحش أحمد من صاحبه.

---

(١٥٧) نسب إليه أنه روى حديثًا يخدم القائلين بخلق القرآن عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن الزهري عن أنس بن عمر: (كلوه إلى خالقه) يقصد القرآن وأن أحمد بن حنبل قال: (كذب: هو يعلم أن الوليد أخطأ وأن الحديث كلوه إلى عالمه) والمحدثون على أن صحة الحديث (كلوه إلى عالمه أو كلوه إلى ربه) ولقد أسلفنا قبل ما روى عن إساءة ابن أبي داؤد استغلال قوته في قيس بن أبي حازم.

لكن عليًا بعد إذ ذهب عنه الخوف صار يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق وإن "القول بالخلق كفر" بل يقول إن الله كلم موسى فعلاً – ثم يقول... ويقول.. مثل "إن الله أعز الدين برجلين ليس لهما ثالث أبي بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة" بل يقول: ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ ما قام به أحمد بن حنبل! ولما استشكلوا عليه قائلين ولا أبو بكر الصديق؟ قال: ولا أبو بكر الصديق. إن أبا الصديق كان له أعوان وأصحاب أحمد بن حنبل لم يكن له أعوان وأصحاب!

والمزني تلميذ الشافعي بجميع أيام الخلفاء الأربعة في وصفه يوم أحمد فيقول: "أحمد ابن حنبل أبو بكر يوم الردة وعمر يوم السقيفة وعثمان يوم الدار وعلى يوم صفين".

وفي سنة ٢٣٢ سمات الواثق وخلفه المتوكل.. وحصحص الحق. فلم يبق من سيرة المأمون في الأمة إلا احتفاله بالعلم. كمثل الإسكندر الأكبر لم يبق من اسمه إلا المدينة التي تحمل اسمه وجامعتها ومنارتها. ونابليون لم يبق له من أعماله أو معاركه الستين إلا القانون الذي يقترن باسمه.

والذين يعصفون بالأشياء كهيئة الصواعق تجتاح الحقب اجتياح الرياح الساخطة، وكل من الناس أن تكتب لهم النجاة منها ليسلم لهم ما حققوه من تقدم. والبناءون وحدهم عظماء. وأعظمهم بناة القيم لأنهم يشكلون ضمير الإنسانية.

obeikandl.com